شعرية اللغة في ملتقى الأساطير
في رواية كهوف هايدراهوداهوس،
لسليم بركات، مؤسسة الدراسات العربية ٢٠٠٤

بيان سلمان

«اخترقوا رأسي كما تخترق السفن الحربية بحاراً، أدموا كلماتي كما تدمي المجازر ميناء أعين، أما مخيلتي- فهي حصن يحميها الزمن» لكل متخيل... لتفادي سطحية البحث عن مفتاح للقراءة، سأشرع بالبحث عن مدخلٍ لكهوف هايدراهوداهوس:

أن يعيش الكاتب تجربة خاصة لا يخلو من مغامرة وخطورة وربما العنف الشديد، أن يخلق كياناً منتجاً في محاور دلالية ومنها يخلق كياناً منفصلاً لكائنات تستفرد بالمكان ليس كرقعة جغرافية بقدر ما هي حدود مطلقة للمكان. وهذا ما تطويه أحداث هذه الرواية الدقيقة التشبث بالعَيْشِ داخل الأسطورة وإحياؤها وليس «إسقاط أساطير في نص الرواية» بإعطاء اللغة بعدها الأكمل، فتسرد الأحداث على ألسنة أنصاف بشر فينجز الكتابة من الداخل، يألفها الخيال وتسري في الشرايين.

هناك في مكان ما أسطورة غطاها الغبار، طمست معالم شفراتها، عالم يبدو لنا نحن البشر- بدائيا، موغلة في القدم، يعثر سليم بركات على مفاتيح دهاليزها- من خلال القراءة، ندخل مكتبتها الخيالية، أشبه بمكتبة بابل لبورخيس، ويقترب من مكتبة المتاهات الموصوفة في رواية اسم الوردة لأمبرتو إكو. مَكان، هو موطن أسطورة ممحوة. يصفُ الراوي الأحداث من الخارج، لا يعرف أكثر من شخصيات لا ينفرد أي منها بالبطولة والاحتكاك بينها شبه معدوم، يثير الشبهات. ومن هنا، فلكل محاورة أبطالها، وبروفيل كل واحد منهم مفصل على مقاسه، مقرون بالدور الذي سيلعبه في الأحداث. نترقب معه وهو الدليل المتبصر، منيرا لنا بشعرية فائقة وشفافية مرهفة، كلمات مصاغة في محاوراتٍ تنحو منحى منطقيا داخل سرد مرتب بتنسيق وتناغم بنائي تجد صداها داخل كهوف هايدر اهوداهوس.

نتساءل عن حقيقة الوجود، وجودنا، وجود أنصاف البشر! تتداخل الأساطير وتلتقي عند مداخل الكهوف ومخارجها، وبالمرّة لا يبدو أبدا أيّ منفذ للكهوف، فنحن نشعر طوال الرواية بأننا ندور في حلقة دائرية من قاعة إلى قاعة أخرى، تؤدي كل منها إلى مدخل قاعة أخرى دون مخرج حقيقي. وهنا تكمن قوة الكتابة وحداثتها حين يرغم قارئ القرن الحادي والعشرين باستعادة خصوبة الخيال والعيش داخل واقع ألأسطورة بيوميات مسبوكة من خيال واعٍ، مدرك لأثر الفانتازيا وتمييزها عن عبث الكتابة.

بيان سلمان، كاتبة عراقية تقيم في فرنسا

في هذا النص الهجين المعجون بمياه تنبع من شطحات الخيال، نتتبع الراوي سارداً الأحداث من زاوية خارجية، شخص، ربما كائن آخر! له معرفة بالتأريخ والأساطير عابرا حصن الإلياذة والأوديسة، معطياً أبعاداً شاملة للأحداث، ومانحا قوة التكلم لشخصياتٍ أشباه بإجراء محاورات طويلة أو قصيرة بين كائناتٍ تمتلك أسرار الكلمة، وتنطق الجُمل على شاكلة الإنس بفضل امتلاكها القسم الأعلى (البشري).

تنطلق الرواية من أسطورة واحدة لتصُبَ في بحرٍ من أساطير متشابكة في البنية. من تلك السلالة النصفية، يولد عالم مشفر برموز، يقدم الراوي الملفوظات على شكل حقائق مختبرة: نعيش زمن الأسطورة، والمكان ديكور يجتاحنا بغرابة تراكيبه داخل فضاء متخيل يلتقي فيه الزمن والمكان وشخصيات أنصاف إنسان وحيوان تعيش حلم الكمال أو عدمه؟ أمر مقترن بمخيلة عالمٍ فكرة الكمال فيه رهينة بما يتصوره كل مخلوق، بالأحرى بما يتلقونه، أو يملى على مخيلتهم من قبل سلطة الأمير الأعلى. فأورسين بمفهومنا النوعي للإنسان، إن هو إلا مخلوق دخيل، غريب عن عالمٍ الموديل الخلقي فيه كائن على شاكلتهم، بنصفه الأعلى إنسان (حيث يتمثل العقل، الفكر، الأحاسيس، الغرائز والأحلام) وبجذع وحوافر حصان تتمثل فيه (القوة، الصلابة، الأعضاء الجنسية ومنها اللذة والولادة أيضاً).

ولادة كائن إنساني ألم، وولادة الأنصاف ألم مضاعف، أما ولادة كائن نصفي بقرن في جبهته فهو ألم مستثنى، والاستثناء يمس الشاذ عن القاعدة العامة بما يعني يشذ عن أحكام عالم كهوف هايدراهوداهوس. في هذه الثلاثية التي تبدو عقلانية، تولد ثلاثية: الإنسان؛ كائنات أشباه؛ وأحلام بأنصاف. هل الإنسان موديل يقاس عليه أم هم الموديل؟ هل يتمثل الحلم الكامل بهم، بأنصافهم أم بالإنسان الذي يبدو لهم كجزأين متشابهيْن، مركبيْن لا يترجم أي معنى لهم؟ ما هي معايير التشابه والاختلاف في عالم نقتحمه نحن (الإنسان) باعتبارنا كائنات أسمى وبالنسبة للهوداهوس- كائن لم يرتق عن الدرجة الثالثة؟

برغم أن سليم بركات يسبق القارئ بحكمه معلناً على الغلاف الرابع (الأخير): لا إسقاطات من الأساطير في نص الرواية. لا إعادة صوغ لإنشاء أسطوري، إلا أننا لا نستطيع الامتناع عن التفكير في أساطير ومعتقدات أخرى وحتى قصص ورواياتٍ عالجت فكرة كائنات بأنصاف أو تحول الكائن الإنساني إلى كائن آخر. فسنتور، كائن معروف عند الإغريق والرومان على السواء ممثلاً العتمة، مخلوق نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان؛ شخصيات من عالم:التحولات لاوفيد، أشخاص يتحولون إلى حيوانات في ألف ليلة وليلة الخالدة، مسخ كافكا، وجانيش ابن الإله شيفا. أليس الاغتراب الذاتي، تعقيد العصر الحالي، اللهث خلف السراب، ازدياد درجة العنف ورقي الحضارات- عوامل يحث الكاتب للالتحام بعالم يصنعه من جنس خياله؟

الكهوف تمثل العالم أجمع حين ينقسم على ذاته في ترتيب هرمي تتركز السلطة فيه تحت إمرة كائن واحد يمتلك العلن والسر، يصادر الحقيقة والحلم، مستبيحاً المشرع واللامُشرّع. وحتى داخل نظام الكهوف العالم منقسم مرة أخرى: الداخل (ألاميروعائلته، خاصته وأتباعه، مهرجه، طباخوه المخصيون، فئة المثقفين)، الخارج (العامة) نظام اجتماعي مبني على تدرج معدن الحدوات أيضا (الذهبي للأمير، الفضي لانستوميس، الحديد لخانياس ونعال من جلد الجاموس للعامة)، في ذاك الفضاء المستلب يلتقي الإنسان بمسخه أو تلتقي كائنات أنصاف بمسخهنّ، يلتبس الأمر علينا- منْ مسخ منْ؟ ومن تعرض للانحدار ومن خضع للتطور؟

الصور الثلاث ممثلة أورسين في حركتين مدروستين: من زاوية تراها أنستوميس: «واحدة لأورسين مستنسخة، بتمامها، عن شخصية اللوح التي وهبتها أنستوميس الى ديديس. والثانية لأورسين وقد أضيف ذيل طويل إلى جسده، فوق ردفيه، كما استبدل قدماه بحافرين. والثالثة لأورسين، بنصفه الأعلى فقط، متصلاً بنصف جواد، مثله مثل مخلوقات الهوداهوس. لكن ما سكب في قلب أنستوميس قطرة من ندى الطلق هو القرن. الذي برز مستقيماً في جبهة أورسين». أما الأخرى فهي من زاوية الأمير (ثيوني لحظات أخيرة قبل موته): «نقل الأمير بصره من شكل الهوداهوس الكامل إلى الشكل الثاني ذي الذيل والحافرين، ثم أطال التحديق إلى الشكل الثالث- شكل المخلوق الواقف على ساقين، عاريا...» إنها أيضا لحظة - يتمم الراوي فيها قوله: إن الأمير مات مطبقاً أجفانه على نقوش الحقائق. ونتساءل: أية حقائق في عالم يبدو ترميما لصور ورسوم غائرة وتشكيلا من محاورات لن تحل نهاية لها؟

في كهوف يستلزم فيها خيط أريان للدخول والخروج، يمتزج الدال والمدلول في تقييم الألفاظ والمعاني داخل نظام جيولوجي بدائي قائم على محاكاة الطبيعة ولكنها طبيعة مرسومة في مرحلة بدائية لتشكيل اللغة، وهذه ليست كافية فيتوجب تدخل العقل لتصفية الأوضاع في تشكيلة علامات ورموز لا يفك شفراته سوى الفوضى حيث بداية الأصل، الخلاص ولكن ممّ؟ «الفوضى هي النظام الأصل»، «الفوضى خلاص» نسمع صدى هذه الكلمات على شفة آزينون الشاعر/ شبيه الأمير في الآن نفسه. توأمه الشكلي.

مخلوقات بلا ذاكرة ليست لديها أدنى وعي عن وجودها أو عدم وجودها، بينما الموت يفرض نفسه في جدالٍ، أقطابه ينتجون الموت حرقاً، مفضلين عليه التحنيط بما يضم هذا الأخير من دلالة عميقة، حيث الخلود، السرمدية وما فيها من تناقض الفكر حين يعلن: «شرع التسليم بتحنيط الموتى بدل حرقهم. الحرق يكثر من اقتحام الأرواح للأمكنة المحظورة: العقل.الهيكل الذي يتزوّد فيه الأمراء برؤية الكهوف المفقودة. مخادع النساء». الحرق هنا مرادف لكل الشرائع والأديان القائمة على حرق الجثث، مؤمنة بأن الأرواح تتناسخ وتتلبس جسداً آخر(حيوان أو إنسان). بينما التحنيط يتحوّل إلى تأهيل للعودة للحياة، نوع من إعادة إحياء الميت بصورة ما، مما يتيح مراقبته، حيث بالمقارنة مع الحرق(حيث تتجول الروح بحرية) يغدو من المستحيل السيطرة على تلك الأرواح الهلامية التي تتمكن من دخول أيّ مكانٍ تريده والمحظور منه خصوصاً.

دورة الحياة في ذاك العالم قصيرة: «في السادسة يتزوج مخلوق هايدراهوداهوس. يكتمل في العشرين. يشيخ في الثلاثين. إن لم يمت ضعفا، أو مصادفة، حتى الحادية والثلاثين، حمل معه حدوثه. كما في روايته الأولى سليم بركات فقهاء الظلام، حيث شخصية بيكاس(...) يولد، يكبر بصورة استثنائية ليشيخ في دورة ليلة واحدة مختفيا في صحراء الثلوج.

في نظام فلكي يدور حول نفسه: تعاقب الليل/النهار، فاكهة الظل/ فاكهة الشمس، القمر/ الشمس. يحتكم عالم كهوف هايدراهوداهوس، بالأرقام إذ لها مكانة مميزة. فالرقم ستة مكرر في عدة مواضع (أحياناً يمثل نصف رقم آخر «ستة وأربعون، ست وستون، ستة عشر») ألها علاقة بقصص الخلق والتكوين؟ سلسلة من أشكال هندسية تفرض كياناً منفصلا مخترقاً بدلالاته حدود عالم مطلق، مرسوم على خريطة زمن ساكن، زمن «حقائق ثابتة»، محاولة إجراء أي تغيير عليها أو حتى فهمها هو المس بقدسية ذلك الكيان: «ستة وأربعون خواناً واطئاً

٢٢٠ عـة٢٢ ٠ساو ىقلحيف ،تعزوت ٢٢٠ .رئا٢٢ ٠د فـاصنأ ،دوسلأا رمرلما نمى أ ض الكهف. كل ضيف أخذ مجلسه امام خوان منها يتسع لستة صحون من الفخار، وإبريق آجري مليئ بنبيذ التوت الأبيض. في وسط الحلقة مائدة مستطيلة من الصوان ذات عروق من الفلز الأصفر والقرمزي».

مقاربة أخرى لصور تجمع بين نصوص دينية سماوية ووجهات نظر فلسفية بالإضافة إلى صور لمآدب معدة أشبه بمأدبة أفلاطون (مع فارق الشخصيات)، وأقربها مأدبة البطريرك في رواية ماركيز خريف البطريرك: (حين إحضار جثة وزيره مشوية ليشارك الوزراء الآخرون في أكله)

«كان الخوان الصخرة، المستطيل ستا وستين ذراعا، على أتم عدته: فاكهة الظلّ وفاكهة الشمس متجاورة في الصحاف..». في أبهة تلك الأجواء الاحتفالية يعيش أولئك المحاربون زمنهم ممارسين طقوساً ليست اقل معاصرة في وحشيتها من طقوس عصرنا الحالي. ضمن هذه الاستعراضية أيضاً يقدم سليم بركات الرواية وكأنه لا يمت إليها بصلة، متحولا بدوره لقارئ محاورات تبدو كمونولوجات، لأنها تؤوي أفكارا ميتافيزيقية تنحصر في دائرة مغلقة؛ وان تحولت إلى ديالوغ- أي إعلانها، فإنها ستؤدي للنهاية كما هو حال الكائن الأبيض حين يستنطقه الكاهن كيدرومي: [«ما الحلم الكامل؟. سأعيدك طليقاً إن شرحت لي ما كنت تثرثر به للطحانين ساعة قيلولتهم»، قال الكاهن. صهل ثانية: «أهو هرطقة ما تفوهت به، أم رؤيا؟». «لا هذه ولا تلك، أيها الهوداهوس الكاهن. الأمر تمرين على الوحدة»، قال الهوداهوس المقيد.]. الحلم الكامل، التمرين على الوحدة، ما هما إلا وجه واحد لفردانية محكوم عليها بالفناء في عالم يعيش نظاماً جماعياً لا مكان فيه للأسرار التي تعني بدورها عدم الانفراد بالنفس- «حمحم كيدرومي: ما حاجتك إلى الأسرار؟ رد الهوداهوس المقيد-هي حاجتي إلى الوحدة»

الكائن، في هذه الرواية مقدم ككائن طبيعي يعيش على مساحة أرضية بعيدة عن التجريد. غير انه عالم منقطع عن الاتصال؛ يعيد إنتاج ذاته عن طريق منظومة من العلامات المستهلكة لا جديد يضاف عليها، حياة فقدت الحركة، وانعدم فيها التغيير والانتقال نحو الأمام (المستقبل)، والحاضر اجترار لماض قابع في سيرورة ترميم. فالزمن هو عصر أشكال ونقوش على الجدران، إذ لا وجود لزمن حقيقي بالمفهوم المعروف للزمن، لا أداة تعلمنا الوقت، ولا نعرف ما هو الوقت، كل الزمن أشبه بالتأطير داخل «ساعة محطمة». نحن راضخون للعتمة والنور، ننصاع لنظام متسمٍّر في الأفلاك.

ففي هذا المنحى يخطو سليم بركات درجة أخرى في استمرارية الإبداع، مقترحاً وجهاً آخر من تراجيديا لها بعد فلسفي عميق يحتم التوقف عنده للوقوف على خاصية النص المقدم، باعتباره معالجة سياسية غير أنها معالجة بعيدة كل البعد عن المباشرة والسذاجة، انه نص لتذوق رفيع، لخيال ليس بحاجة إلى جواز سفر. أما إيقاع المحاورات فهو مسجل في زمنين: زمن السرد في الماضي وزمن المحاورات في الحاضر، وهناك لحظة تتداخل مع هذه الأخيرة يعاد سردها عن طريق الفلاش باك بالاستعانة بخيال الأميرة انكسوميدا يُعلم فيها القارئ وقائع اختفاء الأمير: «امتعض أكسيانوس، حمحم الكاهن كيدرومي. رفرفتْ انيكساميدا بمروحة يدها أمام وجهها، عائدة بخيالها إلى المساء الذي كاشفها الأمير برغبته في الخروج إلى ساحات هايدراهوداهوس وأسواقها، متنكرا (...)».

من زوايا تلك الأشكال الهندسية التي تعج الرواية بها: الدائرة، المربع، والمستطيل، المكعب والسداسي...) المرتبطة بنظام الكون أيضا وبعلم الأفلاك حيث يمتلك أسرارها «مدراس» الشاعر الفلكي، صورة تذكرنا بالشاعر الفارسي، الفلكي عمر الخيام، صورة تؤطر العقل في سيرورة لا منقطعة، سيرورة الكون على منوال نظام مؤسس داخل شريعة هايدراهوداهوس في هارمونية متصاعدة تؤدي بنا للسباحة في مدار أفلاكٍ لا توجد في سماءٍ «عادية» أي كما نعرف السماء ونراها ببصيرتنا، السماء بوجودها أو عدمها في نظام الكهوف.

فضاء الرواية مغلق لدرجة لا تعطي إمكانية تسمية وجود الأشياء بمسمياتها. وهكذا فولادة انستوميس من فصيلة بقرن فريد نابت في جبهتها كعلامة فارقة ترمز لفردانيتها أيضاً، فانستوميس حاكمة فيفلافيذي (المكتبة بعبارة أخرى)، لذا فمعنى الرمز يتسع وتمتدّ جذوره عميقا شاملا الحياة نفسها في كهوف هايدراهوداهوس، حين يتعلق الأمر بسلطة المعرفة ملخصة نفسها في مكتبة أشبه بمقابر الفراعنة بما تحمل أجساد جدرانها من وُشُوم؛ مكتبة مفاتيح أبوابها في عهدة أنثى، بقايا سلالة فريدة انقرض نوعها ولم يبق في حوزتها إلا معاناة التساؤل: «ما الذي فعلته أمتي- أمة القرن النابت في الجبهة- بنفسها»

الإجابة نفسها على الأرجح معلقة داخل مخطوطات تتألف من نقوش ورموز؛ الوحيدة هي- انستوميس مالكة لأسرارها. التساؤل أثناء ذلك ليس إلا حيلة معرفية تتقنها هي محاولة تحريك القارئ للدخول في لعبة فك الأسرار (وليس كشف الأسرار) وإعادة صياغتها في بناء جديد. بالإضافة إلى ذلك فشخصيات الرواية جميعها محكومة بالدخول لأجراء تمرين شاق للذاكرة. بالدخول في لعبة أقسى- سرد الأحلام التي تحل محل سرد الحكايات في ألف ليلة وليلة، ومن هنا فالأمير يحكم على كل اثنين بسرد نصف حلمه حيث النصف الأخر يفترض أن حلمه هو حلم شخص آخر. نصف إنسان، نصف حصان؛ ونصف حلم؛ حتى الديكور المحيط بالمكان نصفي. نحن داخل دائرة أنصاف لن تكتمل إلا بالسرد والذي لا يسرد حلمه يحكم عليه بالموت. أما حين ينفذ خزين الأحلام يجري البحث (وليس الاستغراق في التفكير) عن خدعة تحل محل سرد الأحلام، يتم إذن تلفيق الأحلام، ومستلهمة الفكرة هي أنستوميس العارفة بالخبايا والأسرار، فتمد الجميع بالرموز وتشحن الذاكرة الجمعية من مصدر سرد واحد لحين كشف اللعبة من التوأمين اللذين يبدو عليهما عدم فهم ما يجري؛ يبدو لها وكأن الراوي رأى ضرورة إيقاف اللعبة وإعلان انعطافة نحو المصير المرسوم للأمير؛ عدم الحكي يساوي الموت المنتظر لشهرزاد بينما قوة الرواية هنا هي في هذه الدورة المرتدة على الأمير نفسه، وكأنه تغذى من الحلم الذي حلمه الجميع ونفذ وتغذى أيضا مما لُفِقَ لإطالة السرد وإبعاد الضجر عنه. حين استطردت شهرزاد في سرد حكاياتها حتى وصلت إلى الدرجة الخامسة في السرد لم يكن فقط إنقاذا لرأس الأميرة كما قال تودوروف، وإنما أيضا لتسلية الأمير وأبعاد الضجر والملل عنه وقصة شهريار مع النساء ليست إلا حجة لإيجاد الراوي ذي الباع الطويل- شهرزاد التي لا تسرد فقط وإنما تستطرد في الحكي وتتقن فن السرد. كما أن أنستوميس لا تلفق صورا خيالية فقط وإنما وحدها مالكة زمام المعرفة وإن حملت خنجرين ككل مخلوقات الهوداهوس [...].

وهكذا بالنسبة للمهرج خانياس حين يقر الأمير بأنه لم يعد مضحكا مما يعطينا مفتاح تأويلٍ للوجه الآخر لهذه الملفوظة: (نهايتك وشيكة).

لن أبالغ في المقاربة بأنها نفس تلك الصفحات البيضاء التي لا تحمل كتابة فتؤدي لموت متصفحها. بعبارة تودوروف أيضا: «الصفحات التي لا تسرد تميت»، فهنا مصير خانياس يُعلن عن نفسه منذ البدء وعلى لسانه: «الآن سأقول لك ما هو الموت، لأنني أعرفه » وحين لن يتمكن من إضحاك الأمير، لأنه فقد أيضاً قوة تجديد الدهشة عنده، مفترضين أن الأمير لا ينتظر شيئاً مما قدم له مسبقاً أو توقعه من قبل، لذا خانياس يصير مهرجا من جديد بموته، الذي يحمل بفظاعته الإثارة والدهشة: [«علا الصهيل في كهف الولائم ذي الزوايا التسع(...) إنها جثة خانياس مشوية على المحقة، جالسة في كامل هيئتها(...) قهقه ثيوني:«انظروا إلى حوافره. انه يرتدي حدواته»، قال، ثم صهل صهيلاً موحشاً:«لم اعد أتذكر متى كان خانياس مضحكاً. ها هو مضحك أخيراً»]. كل شيء يظهر وكأنه اللامتوقع حتى تسود فكرة: إننا في غيبوبة، الصحوة منها انصدام بواقعنا الإنساني والتمادي فيها استسلام لواقعهم هم. فلا مفرّ من التساؤل: ما هو الوعي الإنساني حين يخص الأمر كائناً يملك رأس إنسان، عينيه، أذنيه، فمه، وربما قلبه!؟ وما هي نوعية الأحلام التي يجرد الأمير الآخر منها؟ أكفَّ الأمير عن الأحلام وقام باستنزاف أحلام الهوداهوسين كما حجز كرانك الأطفال وقام بسرقة أحلامهم في مدينة الأطفال المفقودين؟

في داخل تلك الكهوف المغلقة، الشمس بما تحمله من معنى الضوء والحرارة مرادف لرفض العتمة. لا نتلمس وجود النور حتى في لحظة «خارجية» تشرق فيها الشمس أو يعلن الفجر، لأن الأمير وحده من يملك حق تأمل الفجر من مرصده والبلورة في حوزته؛ ويسري الأمر على وجود المشاعل في «الداخل«؛ فالإنارة الحقيقية هي تلك التي نبصر فيها آثار كتابات (رموز وعلامات ورسوم) على جدران الكهوف لحظة تعقبنا لأنستوميس حاكمة المكتبة: «تحمل فانوسها القويّ وتدور، بأمومة بصرها وخيالها على الرسوم النافرة والغائرة».

لن أبالغ في الاستطراد: إن رطوبة المكان تتسرب إلى الجسد لحظة ملامستنا لأرضية كهوف محشوة بصور معيشة بدائية. حقل المصطلحات كلها ينتمي للكهف والحيوان وفئة من كائنات تتقن الحروب: [جلد، صهيل، عرف، ذيل، قوائم، حوافر، بهو، صخر، خنجر، حجر، حديد، برونز وفضة...] حتى زينة الإناث الذهبية تفقد رونقها ويتحول معناها إلى مكمل للإكسسوار المعد ضمن مآدب هستيرية. لذا يتحد التأمل مع فكرة الحرب ويصير الفكر في خدمته حين يُصرح: «وضع يديه على مقبضي خنجريه كعادة الهوداهوس في التأمل» إنه إشارة أيضا لعالم يؤمن بالمحسوس. إذ في مكان آخر تقول أنستوميس «نحن قراء الصور لا نثق إلاّ بعيوننا». الصور رؤية بينما وضعية أنستوميس كحاكمة لفيفلافيفذي (المكتبة) تشوش الأمر علينا، فالمعرفة في حوزتها وهي تثق بالعين، إلا إذا تعلق الأمر بإشارة ضمنية للبصيرة الثاقبة مشيرة للعين كاستعارة وليس وسيلة! هذه المصطلحات تثير أيضا فكرة أن هؤلاء الأنصاف يتدربون على تداول المعاني، لا نعرف لغتهم، فاللغة أيضاً نظام تفكير وهذا معدوم عندهم ويحتاجون تمريناً ذهنياً لإعادة ترميم ما فقد من صور ورموز وشفرات على جدران الكهوف، ومن هنا أيضاً ظهور أورسين (إنسان بمفهومنا) في دائرة حياتهم إن هو إلا لغة أخرى غريبة عنهم كما تبدو غريبة علينا أيضاً بعد اعتيادنا على عالم مرموز مقدم لنا من أولئك الأنصاف وعلى أساس أحكامهم نحكم حين ينبئوننا في إشارة تهكمية لأورسين: «الكائن الذي يتأمل كائناً آخر مثله ناقص الأعضاء، هو بلا ذاكرة» إذن هم في مرتبة أرقى لأنهم يتأملون كائنات أخرى غيرهم، مدونين ما يكتشفونه ومن ثم يقومون بصيانته. أورسين ليس اسماً بل

جنس آخر ناقص، فالكمال يتمثل بهم «حين تفتخر الأميرة انكساميدا (...) نحن مخلوقات الشكل الأنبل». وهكذا فحلم أنستوميس النصف (...) الذي يكرر نفسه، باحثة دون جدوى في كل مرّة في حلمها عن مخرج ليس إلا إن منْ كان يكمل حلمها، نصفها الآخر الذي انقرض ولا نعلم شيئاً عنه سوى انه كان من سلالتها. فمن هو الآخر، النصف هنا؟ اقتراح ديديس على أنستوميس بالزواج وهي أنثى، إن هو أيضا عرض بالتزاوج مرددة على مسمع انستوميس «أنا شريكك» في دلالة على تزاوج المعارف حيث ديديس تقول «لقد تزوجت نقوش هذا الكهف(...) أتتزوجينني، أنت أيضا أيتها الهوداهوس انستوميس؟ (...) أنا وأنت، وهذا الكهف، والأعمدة، والرسوم، في دورة خيالٍ واحد. يمكننا أن نحلم بلا نهاية» أهو حلم الكمال، نقل المعرفة وصيانة الذاكرة عن طريق ترميم جدران الكهوف المشحونة بالخيال، بصورة أوضح البناء الأتم ؟ أهو تزاوج بين المعرفة والثورة حيث تمثل بشخصيتيّ أنستوميس وديديس (أنثيين)؟

المرآة كاستعارة عن مضاعفة الصور وانعكاس نرجسية الأمير تفرض علينا التوقف عند انكسارها ورؤية الأمير لنفسه ورؤيته للأميرة في صور متكاثرة ترى في كل شيء، في كل الأماكن وتنعكس في ذاكرة الكل. تواري الأمير في زوايا الكهوف وتنكره في زي ما ومن ثم خروجه إلى الأسواق، ليس إلا خدعة كل الأمراء بعد التشكك في مؤامرة (عند اكتشافه خدعة الأحلام الملفقة)، غير أنه عذر للتخلص من ضجره. إذ ليس في أجواء هايدراهوداهوس أي دخان لنار مؤامرة، فهذه الأخيرة تعني توقع حرب، وهذه بدورها تعني للأمير وأخيه وخُلصَائِهما إبعاد الضجر فالحرب تسلية مباركة، مرحب بها من قبلهم:«بين حرب وأخرى تلزمنا فسحة للتفكير في حرب جديدة، أكثر كمالاً. وهؤلاء الأمراء يعودون بي إلى الضجر(...)». فبعد أيام من بقاء الأمير متنكرا، الموت يتقمص شخص ديديس حين تكشف انستوميس أمر الأمير، فتهب الأولى إلى قتله قائلة: «أمير متنكر هو أمير ميت (...) زفر ثيوني مطبقاً أجفانه على نقوش الحقائق» يقول الراوي- ثيوني مجرداً الأمير من لقبه لحظة موته، حيث الأمير انبعث في شخص الشاعر مذ تنكره مما أعطي شرعية اختفائه كلياً. نحن في دائرة من الرموز، شاعر يخلف الأمير في حكمه، فلكي آخر يخلف الشاعر الفلكي ازينون/ الأمير في قراءة الأفلاك، الكاهن جونامو يخلف الحاكم كيدرومي. يتولد لدى القارئ انطباع بأن أنستوميس هي المدبرة الحقيقية لكل المصائر بامتلاكها لسلطة المعرفة وإملاء الخيال على آخرين، تطريز أحلامهم وحشوه بالصور أليست هي مروضة الصور؟ المملية على ديديس قوة التعامل مع الرموز والصور ومزاوجة الأشكال؟ مرددة على مسمعها: «ابدأي بتغذية قلق جديد حتى ينفجر من التخمة» أيعني ذلك قلقا فلسفيا، معرفيا؟ ربما، ومن هنا لا يستبعد إملاؤها لخيال ديديس بقتل الأمير أيضا.

في هذه الأجواء السريالية يتوارث الهوداهوسيون نظاما اقرب شبها بالعرافة منها عن المعرفة، في استعارات بلاغية مكثفة وتوريات مقولبة في أفكار مستعرضة ضمن المحاورات. داخل قراءات فلكية وفك تمائم الودع المعلق بشعر الإناث وعلى صدورهن؛ حق استنطاق إله اللون من قبل الأمير وحده وتجريد الآخرين من اللون؛ وفي توارث العباءات كرمز لتوارث الملكية والسلطة؛ فالفهود التسعة، حقائق اللون العشر، الأعمدة الثمانمائة الخضراء، وأرقام أخرى يولدون معاني ممتدة الفروع إلى عوالم خفية لا نملك إلا بصيرة قصيرة حيال أصلها. صراع متوارث

بين العتمة والنور، بين أشياء منطقية وأشباه أشياء، بين الحقيقة والتجريد.

يحتل الجسد مساحة متخطية الشكل المرسوم له. إذ في فضاء الجزء الأسفل، في ذاك «المقطع» الحيواني تتركز اللذة الجسدية بمعناها البدائي، بينما الصهيل كميزة للحصان ينطلق بالضرورة من الفم أي من الجزء الإنساني. الطهاة المخصيون يشكلون وحدهم عالما خاصاً: «صهل الطاهيان صهيلا خافتا فيه وسوسة لا تكون إلا في حناجر الطهاة المخصيين في عموم هايدراهوداهوس: يخصونهم كي يشرد النسيان شهوات خيالهم إلا شهوات ابتكار ممالك من النكهات، وشرائع من قدسية الطعم»؛ ما علاقة الطبخ بالإخصاء ؟ الطبخ في كل زمن مثير للشهوة، أما أن يخصى كائن كي يخصب في ابتكار النكهات فهذا من شمائل الهوداهوسيين! الإخصاء ملازم للخيال وهذه مرابض للأحلام، فلكي يقتلع الأحلام من جذورها لابد من نسف الطاقة المرسلة، شهوة الخيال، التي تعني الإتيان بالجديد- الإبداع. غير أن هذه الأخيرة مرتبطة بفكرة الحلم الكامل. فمن مالكه؟

إن من الأهمية الإشارة إلى نقطة قابلة لأكثر من تأويل: وهي التناص المضمر؛ حيث أن الرواية تأخذ بعداً آخر من القصص والأساطير المعروفة وهو البعد الزمني وعكسه بما يفيد غرض المحاورات (كقصة فرعون مصر ساردا حلمه على يوسف). فحلم العملاق تيتونا النصفي، حيث نصفه الآخر عند كيدرومي هما نوع من استباق الزمن لنبوءة تخص مصير الأمير حين يتنكر بزي راعٍ: «أرض عراء، لا شجر. لا حجر. قطيع هائل من الثيران(...) كنت، أنت، أيها الهوداهوس الأمير، من يقود تلك الثيران..».؛ كما هو الحال بالنسبة لتفوهات المهرج خانياس الذي بدا بكلامه وكأنه يستعجل ميتته الشنيعة القادمة. أما فيما يخص ما بعد الحياة، فهو ممثل بين نهر حقيقي كمصدر للحياة وبين نهر سيتام كجسد يحتضن الموت «حيث ينتظر أربعة حراس أقوياء» صورة شبيهه بنهر الموت في الأساطير المعروفة [...] حيث خمسة كلاب شرسة تحرس بابها.

النص الإبداعي هو أيضاً النص الذي يحث القارئ على الدخول إليه من أبواب لا ترى بالعين فقط وإنما يحتاج التفكير في مخرج بعد دخوله. وهذا ما يحدث لنا عند الدخول في هذا النص المتماسك البنية وكأنه مشيّد على رقعة شطرنج نقلة «كش ملك» فيه ليست إلا لعبة واحدة في دورات محكمة الحبكة.

كل شيء يبدأ «بعد»، وهذا البعد يتحول بسهولة تحول الأحداث كلها إلى حدث واحد يصور نفسه في مشاهد متقطعة على شاشة ليست بأقل استعراضية من مشاهد تصوير سينمائي. وهذه نقطة قوة أخرى تضيف لشعرية الكتابة عند سليم بركات لهذه الرواية، حيث لا يمكن إنجاز عمل أدبي معاصر دون أن يكون التصوير السينماتوغرافي في الذهن. أن نكون داخل الحدث ليس كما في خارجه، قد يبدو للبعض صعوبة العيش داخل حدث يستبعد واقعيته، بينما يكفي الواحد منا أن يعيد إنتاج الحدث المروي داخل مخيلة خصبة قادرة وواعية للاستجابة لما هو ليس بمعقول حسب مفردات عقلنا البشري، فجواب أنستوميس لسؤال الأمير عن معنى الموت: «أنه خراب اللون» ما هو إلا إشارة للفناء حين يطغى اللون الأبيض والأسود على كل شيء. بالأحرى ينعدم اللون ولا نجد تعريفاً له. وهنا أسمح لنفسي لأشير للقارئ برائعة كوكتو فلم «أورفيّه» حين يدخل اورفيه من خلال المرآة عابرا للعالم الآخر يرافقه مرسل من الموت ماراً بمنطقة أشبه بمدينة بعد الحرب، ينعدم فيه اللون، يمثل الخراب متسائلا أورفيه بدهشة:

[. . .] أين نحن؟ يجيب المرافق: إنها منطقة، صنعت من ذكريات الإنسان وأطلال عاداتهم. الأصح ربما وارجع إلى كلمة «بعد» حيث الصعوبة القصوى تكمن بعد الحدث: إذ تصير الأحلام كلها كابوساً واحداً يصاحبك إلى الأبد في رحلة داخلية ليست أفظع من رحلات نحو عالم الأموات حين تلازمنا الأشباح وتتكتل حولنا الجثث، وسنتحول بدورنا إلى جثة تتأمل شبحها من الأسفل للأعلى ولكن بخطوط متقاطعة، متداخلة في بعضها كمتاهات لا خروج منها إلا لإعادة السيناريو بشكل افظع لليلة قادمة. وأحياناً في قيلولة نهارٍ نطمئن فيها إلى أن الكوابيس لا تتقاطع مع القيلولات!

وما يثبته سليم بركات هنا، منهياً المحاورات على مشهد الشعراء وكأن به يلهث معهم ويهذي بالأشعار، أو ليس الشعر نوعا من (السقوط) الواعي داخل الهذيان؟ أو ليس العالم نفسه مخلوقا من هذيان الشعراء؟ «اندفع سيل من الغبار خلف الشعراء الراكضين في الحلبة يلقون أشعاراً مختنقة من حناجرهم الهاذية، وتصادمت أصداء الحدوات المدربة على ابتكار رنينها».

غير أنه حتى في فضاء كهوف هايد راهوداهوس المغلقة والمقلقة بنتائجها النهائية، يترك للقارئ حق العثور على ثغرة في كوة الكهوف لإعادة الإمعان في لوحٍ حجري نصفه الأسفل مكسور، منقوش عليه رموز وشفرات لم تكتمل، وما على القارئ إلا البدء بتكملة لهاتيك الكتابات المتوارثة، لا لشيء إلا للتواصل مع أجناس أخرى وإن لم يكونوا من نوعنا أو نحن من نوعهم.

المصادر:باللغة الفرنسية

- Tzvetan Todorov, Poétique de la prose, éditions du Seuil, 1971-1978.
- Michel Fayol, Le récit et sa construction, édition Delachaux & Niestlé, Paris 1985,1994.
- Maurice Blanchot, L’espace littéraire, éditions Gallimard, 1955.
- Patrick Vauday, La matière des images, éditions L’Harmattan, 2001.
- Gérard Dessons, Introduction à la Poétique, éditions, Dunod, Paris 1995.
- Gérard Genette, Palimpsestes, éditions du Seuil, 1982.
- Gérard Genette, Figures III, collection poétique, éditions du Seuil, 1972.

(*) للاطلاع على رواية لورا إسكيفيه(تظهر علاقة الرغبة والشهوة بالطبخ)، أعدت هذه الرواية للسينما في فيلم من إخراج الفونسو ارو.

- Laura Esquivel, Chocolat amer, éditions Robert Laffont, 1991. Le film, adapté au cinéma par: Alfonso Arrau, Les épices de la passion, 1993.
- Renate Germer, La vie après la mort dans l’ancienne Egypte, éditions Flammarion, 2001, Traduit de l’anglais par Jean-François Allain.
- La cité des enfants perdus, Réalisation⁄: Marc Caro & Jean-Pierre Jeunet, 1995.

ما الذي في الكأس؟
يوسف الخال ومجلته «شعر»، لجاك أماتاييس،
دار النهار، المعهد الالماني للابحاث الشرقية

ديمة الشكر

يروي الناقد الهولندي الراحل «إد دي مور» أنه سأل أدونيس مرة ـــ وكانا في مهرجان شعري في آمستردام ـــ لِم لم تقدر تجربة «شعر» أن تستمر في نهاية المطاف؟ تريث أدونيس قليلاً ثم نظر إليّ، ابتسم بمرارة وقال: كانت قد انتهت، الكأس كانت فارغة. لم يعد هناك من إلهام لما كنا نود عمله».

ماذا كان يوجد في تلك الكأس؟ ومِم فرغت؟ هذا هو السؤال. وهو سؤال شرعي يزداد إلحاحاً بعد مرور قرابة خمسين عاماً على تجربة مجلة «شعر» ومؤسسها يوسف الخال. وشرعيته تلك تعطي الكتاب الذي بين أيدينا ميزته الوحيدة ربما: ميزة الجواب، من دون أن يكون هذا الأخير شافياً أو مقنعاً أو جديداً.

متسلحاً بالتوثيق والوثائق والبحث العلمي والمنهجية الصارمة، والجهد الشخصي في اقتفاء أثر المعلومات أنّى وجدت، يعلن جاك أماتاييس أن المنهج الذي يتبعه هو «المنهج التوثيقي والتاريخي». وهو يهدف من خلال كتابه هذا أن يؤرخ للسيرة الثقافية للشاعر يوسف الخال. ويهدف من جهة ثانية إلى وضع مجلة «شعر» تحت مجهر التحليل نفسه.

درجت العادة في دوائر البحث العلمي، على النظر إلى الكتب «العلمية» من جهة التزامها بالمنهج الذي اختطته، والنظر فقط فيما إذا حادت عنه، تاركةً للكتاب بعدها أن يدبر شؤون حياته، ويصمد في وجه الباحثين اللاحقين.

لا يخفى أن الكتب «العلمية» بصيغتها وشكلها الغربيين، قليلة في ثقافتنا العربية. لذلك ربما ينبهر القارئ بترتيب الكتاب وتبويبه وملحقاته وإشارته إلى المصادر والمراجع بدقة ومهنية. إذ إن الكاتب التزمها شكلياً، ـــ أقول شكلياً وأؤكد ـــ لأن التبويب لم يكن موظفاً من أجل إظهار الأفكار بشكل واضح، ربما لهذا، تكررت المعلومات في الكتاب مرات عدة. من ناحية أخرى، حملت عناوين الفقرات ادعاءً مبالغاً فيه وابتعدت عن وظيفتها في أن تكون دالة على شيء محدد بشكل علمي محايد، وبدت كعناوين كبرى وشعارات لا ترفدها ولا تدل عليها الفقرات التي تليها. أما الجداول الموجودة في متن الكتاب، فقد بدت في غالبية الأحيان حلية تزينية، تظهر المعلومات بالطريقة ذاتها التي تظهرها الفقرات، أي إننا نصل إلى النتيجة ذاتها مع جدول أو من دونه. لذا لا يسعني إلا أن أرى انفصالاً حاداً بين «شكل» الكتاب «العلمي» ومضمونه المتخفف من «العلمية».

يتألف كتاب جاك أماتاييس السالسي من قسمين رئيسين: الأول، بعنوان «سيرة يوسف الخال الثقافية»

ديمة الشكر، كاتبة سورية – دمشق

والثاني، بعنوان «مجلة شعر، منبر الحداثة». وكما يفترض بالكتب العلمية، فإن كل قسم بدوره يتألف من فصول عدة. القسم الأول يبين جهد الكاتب في تدقيق ومن ثم توثيق كل تفصيل يتعلق بحياة يوسف الخال: من المدارس التي انتسب إليها، إلى انتسابه إلى الحزب القومي السوري، عمله في الصحافة، دراسته الجامعية في كلية حلب الأميركية ومن ثم الجامعة الأميركية في بيروت، ذهابه إلى أميركا، وليبيا وعمله فيهما، ثم عودته إلى لبنان وصولاً إلى إنشاء مجلة «شعر»، ومن ثم توقفها، إنشاؤها وتوقفها ثانية. وعمله المتقطع في الصحافة والكتابة، وأخيراً الانصراف إلى الصياغة اللغوية للكتاب المقدس. يكرس جاك أماتاييس القسم الثاني من الكتاب لمجلة «شعر»: منطلقاتها الفكرية، هويتها، وأهدافها التي طمحت للوصول إليها عن طريق الجدل الذي أحدثته في الشعر والنقد العربيين الحديثين، ومقاربتها للتراث واللغة.

في القسم الأول من الكتاب، ينجح جاك أماتاييس في وضع سجل رسمي للشاعر، إذ إن كل تلك المعلومات ترتب في جداول كما لو كانت أرشيفاً صامتاً، وتحتل حيزاً أكبر من المتوقع في «سيرة ثقافية»، وأحياناً على حساب معلومات أخرى تتطلب تحليلاً للوصول إلى نتائج. أي باختصار، إن عملية جمع المعلومات هي من أولى مهام الباحث لكنها ليست المهمة الأخيرة، فهي بحاجة إلى تحليلٍ ونفاذٍ وعمق كي تسبر فعلاً المؤثرات الثقافية التي طبعت شخصية يوسف الخال.

تحليل المعلومات الموثقة هو في صلب المنهج التاريخي التوثيقي، ويوسف الخال ومجلته «شعر» هما مثال ممتاز للمفاضلة بين نوعين من المعلومات:

أولاً: المعلومات الشائعة التي اندست في متن النقد العربي الحديث، وهي على نوعين: نوع اختار تقديس الشاعر وتحويله رائداً للحداثة برمتها، لكن دون الربط العلمي النقدي المحكم مع نتاجه الشعري، أو دوره المتفرد في تحريك مجموعة موهوبة من الشعراء الناشئين في بيروت الستينات، وفرض موقع مرموق لمجلة أدبية متخصصة. ونوع ثانٍ اختار ألا يرى في يوسف الخال إلا شاعراً قليل الموهبة الشعرية، كثير الضجيج، قادراً على خلق معارك أدبية، وإثارة مشكلات «أدبية» عبر نافذة «سياسية» تعلن انحيازها التام والمطلق للحرية الكاملة غير المنقوصة في الشعر واللغة، وتالياً تهدف إلى هدم التراث.

ثانياً: المعلومات غير المعروفة المندسة في أرشيف الشاعر بخجل، وهي تفصح فيما لو حللت «علمياً» عن شخصية كاريزمية، شجاعة، ومثيرة للجدل باستمرار. شخصيةٌ، سيطرت عليها لاحقاً خيبة الأمل، ومنعتها من إعادة النظر في تجربتها. إذن، لدينا معلومات شائعة راسخة من جهة، وأخرى غير معروفة، يتيح تحليلها لنا إعادة قراءة التجربة.

المفاضلة ما بين النوعين ترفد البحث «التوثيقي التاريخي» بكل ما يلزم كي يضع الشاعر والمجلة في سياقهما التاريخي، يعطي لقيصر ما له، ويسمح لنا بالنظر «موضوعياً» إلى داخل الكأس: ماذا نجد في كأس يوسف الخال ومجلته «شعر»؟.

إذا أخذنا معلومة من النوع الأول، أي المعلومة الشائعة المعروفة التي تحولت إلى مسلمة راسخة ونظرنا في طريقة وضعها من قبل الباحث في متن الكتاب، لقدرنا ربما حجم الخسارة الناجم عن عدم تحليلها «علمياً» وربطها

مع سياق تاريخي موجود في تلك الفترة: لا يخفى أن يوسف الخال وبانتسابه إلى الجامعة الأميركية في بيروت بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٤، وقع تحت التأثير الطاغي لشارل مالك، لدرجة أن الأسس العشرة الشهيرة التي وضعها في محاضرته «مستقبل الشعر في لبنان» عام ١٩٥٧، متأثرة أو مقتبسة سيان من مبادئ الرابطة الفلسفية العربية التي أسسها شارل مالك عام ١٩٤٢ وكان الخال منتسباً إليها. هذا التأثير الطاغي لشارل مالك سيستعاد في فقرات عدة، مرة عند الحديث عن انتسابه إلى الجامعة الأميركية، ومرة عند الحديث عن الرابطة الفلسفية العربية، وثالثة عند الحديث عن انفصاله عن الحزب القومي السوري هو وغسان تويني، وهكذا على امتداد البحث، على نحو يبدو فيه البحث العلمي عالقاً في متاهة من المعلومات، تمنعه من التنامي. فماذا يعني في النهاية أن نكرر أن الخال متأثر بأفكار شارل مالك، دون أن يضيء التحليل هذا التأثر أو يبرره؟. بل ربما على العكس، إذ إن التكرار ليس من أدوات «النقد» قطعاً، وهو في حال حدوثه يسيء إلى موضوع النقد (وهو هنا يوسف الخال) على نحو يظهر فيه الشاعر غير قادر على هضم ما تأثر به والانطلاق قدماً، أي بكلام آخر: عدم القدرة على الإبداع انطلاقاً من تأثر ما، والدوران في فلك التأثر فحسب. فحادثة انفصال يوسف الخال عن الحزب القومي السوري «بتأثير من شارل مالك» مثلاً، ليست أمراً نافلاً يمكن الاكتفاء بسرده، بل تتطلب تحليلاً وكشفاً. وقصة انتساب يوسف الخال إلى الحزب القومي السوري وتأثره بالزعيم أنطون سعادة ثم اللقاء به عام ١٩٣٧، والكتابة في «النهضة» والانفصال عن الحزب بعد ذلك هي أيضاً ليست مجرد «معلومة شائعة» أو مسلمة فحسب، بل هي في صلب التأثر: هنا نجد مثالاً قد هوى، فيوسف الخال قال عن اللقاء المذكور: «بعد ثلاث ساعات من الجدال اقتنعنا فعلاً بأن الحزب بتنظيمه عسكري تراتبي». ماذا حدث فعلاً وقتها؟ هل هو تأثير شارل مالك فحسب؟. من ناحية ثانية، وعند الحديث عن حادثة إعدام أنطون سعادة يقول جاك أماتاييس: إن يوسف الخال كتب أربع مقالات في جريدة «الهدى» تحت اسم مستعار، وعلى الرغم من أن الباحث يشير في المقدمة إلى اطلاعه على ميكروفيلم الهدى في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، فإنه لا يقتطف من المقالات شيئاً، ولا يضع صورة عنها في الملاحق. من غير المناسب حقاً أن تتم استعادة المعلومات «الشائعة المعروفة» من دون تحليلها، خصوصاً وأن المجلة، ورغم انفصال غالبية أعضائها عن الحزب، بقيت وإلى اليوم (عام ٢٠٠٤) متهمة بالقومية السورية. هذا الكلام «السياسي» أثر في النقد العربي وفي النظر إلى يوسف الخال ومجلته «شعر» وجميع من عمل فيها. لكن الخلاص منه (وهو ضرورة) لا يكون باستعادة معلومات قديمة «شائعة» من دون تحليل، هنا تبرز الحاجة عملياً إلى منهج النقد التأريخي الذي يشترط الإحاطة بالخلفية الاجتماعية السياسية ككل، لا الاكتفاء بالتفاصيل والجزئيات من دون تحليل. فإن كان سائداً وقتها الانتساب إلى الحزب القومي السوري، فهذا ربما يخفف من وطأة الكلام عن تأثر الشاعر بأنطون سعادة والحزب. أما إن كان التأثر بأنطون سعادة حادثة مفصلية في حياة يوسف الخال وطبعتها كلها، فإن هذا يعني ضرورة تحليل المعلومات «الشائعة» أولاً ووضعها في إطارها التاريخي، ومن ثم البحث عن تلك المعلومات «الهامشية» وتسليط الضوء عليها بشكل علمي من أجل منع «مسلمة التأثر بالحزب» من إعاقة النظر فعلاً إلى يوسف الخال ومجلته «شعر». هذا هو الخطأ الأكبر في بنية الكتاب، وهو ينعكس على كل الفصول والأقسام ويضيع جهد الكاتب حقاً، فهذه المشكلة «البنيوية»، إن جاز القول، انعكست مثلاً في التبويب السيئ للفقرات والفصول. (عدا عن إن بعض عناوين

الفقرات تمثل أحكام قيمة ولا تمت بصلة إلى البحث العلمي).

المعلومات القليلة نفسها وغير «المعالجة»، تظل تستعاد وتتكرر بلا أي طائل أو مبرر«علمي» منهجي» يسندها، إلى حد تضيع فيه الفروق بين «كتابة السجلات» و «التوثيق العلمي».

في «كتابة السجلات»، نجد أن الخال درّس في الجامعة الأميركية بين عامي ١٩٤٤__١٩٤٦، بيد إن «التوثيق العلمي» يتطلب الإجابة عن السؤال الأساسي: ماذا درّس الخال عملياً في الجامعة الأميركية؟ أماتاييس يجيب إنه درّس العربية فقط. هذه النقطة المهمة لم تستوقف الباحث، هنا لا زيارة إلى سجلات أرشيف الجامعة الأميركية، ولا صورة عنها في ملاحق الكتاب، مع أنها من أهم المعلومات الواردة وهي كفيلة بأن تضيء بصورة «مغايرة» ما كان سائداً عن يوسف الخال وافتتانه اللامتناهي بالشعر الغربي مثلاً، أو يمكن أن تضيء لنا حقاً علاقته باللغة، خصوصاً أنها كانت شغف الخال المعلن على الدوام.

وهناك ناحية خطيرة في سرد المعلومات «الهامشية» بطريقة «معقمة معزولة» عما يحيط بها، إذ يكتب جاك أماتاييس «ثم في ١٠ نيسان بمناسبة مرور لويس عوض في بيروت، انتهز الخال الفرصة للإشادة بدعوته الرائدة عام ١٩٤٧ إلى تحطيم لغة السادة المقدسة واقرار لغة الشعب العامية». وفي موضع آخر عندما استلم يوسف الخال في أميركا رئاسة تحرير «الهدى» وتحت عنوان «كبير» : «خصومة الموازنة المتعصبين»، يسرد الكاتب كيف كسب يوسف الخال «البروتستاني المذهب» ثقة الأوساط اللبنانية آن نشر قصيدته «لبنان» على صفحات الهدى، تلاها مقال عن «قيمة التراث» اللبناني بمناسبة عيد مار مارون». وفي موضع ثالث يذكر جاك أماتاييس ضمن فقرة «ترجمة الشعر» ولع يوسف الخال بالشاعر جون كيتس،(وهو أمر طبيعي بالنسبة لشاعرٍ أن يقرأ ويحب غيره من الشعراء، بل من الممكن جداً أن يقتبس منهم)، بيد أن المفارقة تكمن في السؤال التخميني التالي للباحث: «فهل من المعقول ألا يترجم بعضاً من هذه الأشعار إلى العربية؟ الأرجح أنه فعل، وإلا كيف استطاع التدرب على الأسلوب الجديد؟». عبر الأمثلة الثلاثة أعلاه، تظهر صورة الخال على الشكل التالي: انتهازي متملق، وغير مبدع.

لن أدخل في «الانتهازية» أو «التملق» لأنها صفات شخصية أولاً، وغير صحيحة ثانياً. سأكتفي بالمثال الأخير المتعلق بالترجمة كونه يدخل في صلب نظرتنا إلى الشعر العربي الحديث. من المعروف أن البدايات الوعرة لشعرنا الحديث في نهاية الأربعينات خضعت للدراسة والتحليل من قبل النقاد العرب والغربيين، وكثيراً ما تم الربط بين الشعر العربي الحديث و«ترجمة» الشعر الغربي عن الفرنسية والانكليزية فقط. وهي نظرة تحيلنا فوراً إلى كتاب شموئيل موريه :

Modern Arabic Poetry 1800- 1970, the Developmemt of its Forms and Themes under the Influence of Western Literature.

الذي يرى في الشعر الحديث مجرد تأثر بالأشعار الغربية والانكليزية منها على وجه الخصوص، ولا يجد حرجاً في ذلك، رغم أن الشعر العربي الحديث انبثق من قلب التراث العربي، تطور إلى «شكله الحديث» نتيجة عوامل عدة، أهمها: أنه كان نتيجة متطلبات فنية أملاها التغيير في الذائقة، وتغير النظرة إلى الشعر ومفهومه.

وهذا التغيير حدث على مراحل عدة متباعدة. هنا من المناسب القول: إن عزل يوسف الخال عمن عاصره أو سبقه من الشعراء، لا يصب في المحصلة باتجاه إنصافه البتة. فعلى الأقل تأثر الخال بالمهجريين وعلى رأسهم جبران خليل جبران، والناظر في أشعاره الأولى (ديوان الحرية: «نغم»، «إلى سومي» «أهواك») لن يفوته على الغالب رؤية الأثر الكبير لشاعر كبير هو سعيد عقل. كما أنه من ناحية ثانية لا يمكن لنا «تاريخياً» إهمال دور المدرسة المصرية: جماعة الديوان ومجلة «أبوللو»، في تغيير الذائقة والحساسية العربيتين بالطريقة نفسها («الصدامية» ربما) التي قامت بها مجلة «شعر». بعد كل هذا ليس من المعقول أن يبدو الخال «متأثراً» بالترجمة فحسب. خصوصاً إنه في الفقرة ذاتها، يشير جاك أماتاييس إلى محاولتين في الاقتباس عام ١٩٤٥. ولا أنكر أن التوثيق هنا مهم، بيد أن التركيز على التأثر والاقتباس، يظهران يوسف الخال ظلاً باهتاً للشعر الغربي. وهو أمر ينافي على الأقل دور يوسف الخال ودور مجلته «شعر». ثم إن الترجمة ليست عملاً مشيناً بحق الشاعر ولا التأثر هو أيضاً بالعمل المشين، لا أحد يولد من عدم، والكل يتعلم من الآخرين، والعبرة أولاً وأخيراً في الاستمرار بعد التأثر وفي النتاج الأدبي في المحصلة.

المشكلة في رأيي هي في عدم رؤية ما حدث بعد التأثر، (فالنظرة للشعر العربي الحديث بوصفه نتاجاً للترجمة فقط لم تصمد)، إذ إن التجربة استمرت وخلقت أشكالها وأوهامها، وفرضت نفسها في النهاية، وليس من «العلمية» في شيء أن يستمر التأثر بمصادر قديمة لها نظرتها الخاصة التي حكمتها ظروفها وسياقها التاريخي، وعدم التطلع إلى أية مصادر أخرى. فنتيجة للاستعانة بمعلومات / مصادر «شائعة معروفة» وعدم إعادة النظر والتحليل، يصبح نتاج الباحث أقرب إلى إطلاق «أحكام قيمة» بدلاً من أن يرفد البحث. وأحكام القيمة تلك متناثرة في متن الكتاب بشكل كبير. فمن حيث لا يدري يسيء جاك أماتاييس إلى يوسف الخال حين يتساءل في نهاية القسم الأول من الكتاب: «ألم يستعجل دانتي العرب المجيء»، وهو حكم قيم كبير لا أساس علمياً ولا إطار تاريخياً يسنده. إذن، مرة أخرى يبدو عزل الشاعر عما كان يحيط به من جدالات تخص «اللغة العربية»، وعدم الاستفادة «العلمية» من الكتب اللاحقة التي تناولت هذا الموضوع عائقين على قدرة جاك أماتاييس على إقناعنا برأيه، وهو رأي يقوم فقط على إعجاب لا متناهٍ بيوسف الخال. فكتاب جورج طراد مثلاً تناول بالتحليل الدقيق تنظير وتطبيق يوسف الخال للغة المحكية، وهو توصل إلى نتائج «ملموسة وموضوعية» آن كف عن الاستسلام لمعلومات شائعة ومعروفة.

إعجاب جاك أماتاييس بيوسف الخال هو متن الكتاب كله، وهو إعجاب لا ينطلق من المعرفة والتحليل قدر ما ينطلق من «الإيمان». لهذا ربما تم اختراق المنهج التوثيقي التاريخي من قبل منهج آخر.

نقد ديني:

ففي متن الكلام عن «سيرة ثقافية» تُظهر عناوين فقراتها تقسيم حياة الخال إلى مراحل مؤرخة بدقة، تندس فقرات أخرى تفصح عن منهج متخفٍ موازٍ للمنهج المعلن: «صورتان للشاعر: المسيح وأوديس»، «التربة القاحلة»، «التكريس هو الماء المحيي»، «حقيقة خلق الإنسان على صورة الله ومثاله»، «حقيقة الخطيئة الأصلية أو السقوط»، وتتناثر على امتداد الكتاب جمل من نوع: «على غرار دعوة أنطون سعادة التي يضيف إليها

الخال دعوة القديس بولس إلى التجدد»، «إن ما قام به في حقل الثقافة والفن والأدب عمل فريد لما تميز به من الحس الرسولي»، «ملامح الإنسان كما تتجلى في فكر يوسف الخال تطابق تماماً معطيات الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد»، «في مثل هذا العمل بالذات يتحقق وجه من رسالة الشاعر النبوية على غرار دور الأنبياء في العهد القديم. هذا غيض من فيض يفصح عن المنهج الموازي. وهو منهج نقدي ديني بامتياز، يطال النظر إلى القصائد، وغالبيتها مستقاة من ديوان يوسف الخال الأكثر شهرة: «البئر المهجورة». ففي فقرة معنونة «حقيقة الخطيئة الأصلية أو السقوط» يربط الباحث بين القصيدة واللاهوت المسيحي، ويرى في قصيدة «الحوار الأزلي» سقوطاً من نوع غريب «هي حالة السقوط أي التخلف التي يعيش فيها الشعر العربي». وفي موضع آخر يكتب الباحث: «ثانية وانطلاقاً من حقيقة الفداء المسيحية يخلص يوسف الخال إلى الإيحاء بأن الثقافة العربية وخصوصاً الشعر تحتاج إلى مخلص وفادٍ يزيل عنها خطيئتها». وحين يقول يوسف الخال في القصيدة ذاتها: «متى تلمسنا أصابع الشك؟» يرى جاك أماتاييس أن منهج ديكارت هو المقصود حتماً قبل أن يستنتج: «وتعبير أصابع الشك يستوحيه من إنجيل يوحنا».

لا يسلم من هذه القراءة «الدينية» حتى نتاج الخال وموقفه من التراث الشعري. تحت عنوان «قضية التراث في ثوب شعري» نجد عنوانين فرعيين: «إله مات» و«الرحيل». تحت الأول تُحمل رسالة يوسف الخال إلى سلمى الخضراء الجيوسي تأويلاً دينياً إذ قال الخال فيها: «إن آلهة العالم العربي قد ماتت...أفلا تظنين أننا في نهضتنا أو ثورتنا الحاضرة نحو حياة أفضل يجب أن ندفن آلهة جاهليتنا الراهنة؟». جاك أماتاييس يحلل الرسالة، ويرى في المقابلة ما بين التراث والآلهة بعثاً وقيامة وفداء: «بواسطة هذه المقابلة يضع يقينه ببعث التراث العربي على مستوى واحد مع إيمانه الثابت بقيامة المسيح، كما يعبر عن حقيقة الفداء المسيحي». أما تحت العنوان الثاني «الرحيل» فيحلل جاك أماتاييس هذا المقطع: «هنالك أحضن وجه التراب / وأسمع صوت الإله» على الشكل التالي: «يبدو لي أن في هذين البيتين احتفالاً شبه ديني...إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون قد استوحى تجربة موسى النبي التي ورد ذكرها في سفر الخروج».

من الواضح تماماً إعجاب جاك أماتاييس الذي لا ينتهي بيوسف الخال، بيد أن هذا الإعجاب وهذه المقاربة الدينية لنتاج الشاعر، تقوده إلى استنتاجات خاطئة، وإلى إطلاق أحكام قيمة وفرض نتائج خطيرة لا تمت بصلة للبحث العلمي. كأن يكتب: «لذلك، فالشاعر المسيحي الذي يرتبط بتراثه المسيحي هو شاعر أصيل. غير أن الأوساط الثقافية المتعصبة لم تقبل بهذه الحقيقة وعملت على مقاومة حركة الشعر الحديث بسبب نزعتها المسيحية والمفاهيم والرموز الدينية المسيحية التي كانت تستخدمها وتعمل على ترويجها معتبرة إياها منافية للإسلام». لا يسعني التعليق على هذا الكلام لافتقاره إلى أدنى مقومات البحث العلمي، سأكتفي فقط بالسؤال: هل كان لحركة الشعر الحديث نزعة مسيحية؟ واليوم ما هي نزعتها؟. هل كانت تلك الحركة «تستخدم» الرموز الدينية المسيحية؟ أم أن النظر إلى الكلمات الواردة في القصائد من ناحية اعتبارها رموزاً مقتلعة من منبت ديني فحسب، ليس نقداً ويعتم على عمل الشاعر في أن يفصح عن أفكاره بطريقة شعرية حرة؟ الكلمات ليست مجرد رموز مباشرة. والرمز ليس معطىً سلفاً في قصيدة، ولا يأتي من عدم، بل يتشكل وينبني فيها وفقاً لمتطلبات فنية دقيقة: التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية. ويتشكل ويأتي من واقع ما، مما هو محسوس أصلاً، وبكلام آخر،

إن الرمز ينتج عن نوع من الجدل بين وعي الشاعر والواقع الذي يعيش فيه، ويفترض أن يفصح عن عالم الشاعر ونظرته ورؤيته إلى واقعه وعالمه، لا أن يفصح عن مجرد الاستعانة برموز من الكتاب المقدس. ولو وسع جاك أماتاييس من زاوية نظره قليلاً، هل كان سيجد في قصيدة «المسيح بعد الصلب» لبدر شاكر السياب لاهوتاً ما؟ أم أن الأمر يتعلق بالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والتي تتشكل وفقاً لمتطلبات واقع ما، وتفصح عن الجدل بين وعي الشاعر وواقعه؟

لا نزال في الشعر الحديث إذن، وفيه نجد خلطاً يوحي حسب الكتاب الذي بين أيدينا وكأنه انتقل بلمسة ساحر من نظام الشطرين المقفى، إلى نظام «حديث»، مليء بالرموز الدينية المسيحية، غير واضح المعالم اللّهم إلا التأثر بالشعر الغربي وفكر هيراقليط وأنطون سعادة وشارل مالك، وترافقه في الآن ذاته رغبة فائقة لائقة تماماً في الثورة والتغيير والتمرد والرفض، كما لو كان هذا الشعر ينبثق أو ينبعث سيان من أرض محروقة و«تربة قاحلة». ينوه جاك أماتاييس بالمصادر التي استعان بها من أجل دراسة المجلة، ويذكر كتاب شموئيل موريه إياه، ويصفه قائلاً : «يتناول أشكال الشعر العربي وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي في أقسام رئيسة تتناول الشعر المقطعي والشعر المرسل والشعر الحر بمرحلتيه». اعتقدت أن المقصود بالمرحلتين هو «تيار التفعيلة» وتيار قصيدة النثر»، لكني لم أجد في الكتاب أي أثر لمصطلح «تيار التفعيلة»، هناك فقرة بعنوان «قصيدة النثر» يصف فيها جاك أماتاييس عام ١٩٦٠ قائلاً : «وهكذا في مدار سنة تقريباً توصل شعراء مجلة «شعر» إلى هدم الحواجز بين النثر والشعر في الأدب العربي». هنا مرة أخرى يبدو أن التمسك بالتوثيقي (وهي وثائق منتقاة بدقة) على حساب التاريخي من جهة، وإغفال المقارنة كأداة النقد الأولى، وإغفال المصطلحات التي اعتمدناها أخيراً من جهة ثانية عمل غير موفق. إذ هناك تياران في الشعر الحديث : تيار «التفعيلة» وتيار «قصيدة النثر»، وهو لم يمر بمرحلتين بل بمراحل وتطورات، كانت خجولة في النصف الأول من القرن العشرين، لكنها ازدادت تواتراً وتصميماً في النصف الثاني منه. وفي النصف الثاني نجد الخال الذي لا ينكر أحد مساهمته في كلا التيارين، وتالياً، فإن عملية إخضاع نتاجه الشعري للمقارنة مع نتاج شعراء عاصروه أو كانوا سابقين عليه، ستضيء حتماً مكانته في مسيرة الشعر العربي الحديث، وتضعه تالياً في سياق تاريخي محدد، مكان الشاعر، ضمن تاريخ وسياق محددين هو في النهاية من متطلبات المنهج التاريخي الأساسية.

ثم يكتب جاك أماتاييس «بل ذهب الخال إلى أبعد من ذلك قائلاً: إن الشعر الحر من القافية والوزن الكلاسيكي هو شعر المستقبل»، وهذا الكلام بالنسبة لمن يعرف مسيرة التغيير والانتقال إلى الشعر الحديث يبدو صحيحاً. بيد أن أماتاييس يُقوّل الشاعر ما لم يقل حين يضيف من عنده : «لم تتأخر هذه الأفكار عن التأثير في نفوس بعض الشعراء الشباب وكان محمد الماغوط السباق إلى تطبيقها في مجموعته «حزن في ضوء القمر». وفي هذا الكلام مغالطات كبرى، ليست أولاها إن المقصود بكلام الخال قصيدة التفعيلة وليس قصيدة النثر، وليست ثانيتها أن الماغوط يمثل حالة استثنائية في كتابة الشعر بعيداً عن أية عوامل مؤثرة خصوصاً في بداياته، وقد تم تقديمه إلى خميس شعر من قبل أدونيس الذي قرأ شعر الماغوط دون أن يعلن اسمه وترك الحاضرين يتخبطون (بودلير؟...رامبو؟)، لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إليه وقال : «هذا هو الشاعر» . وليست ثالثتها أن قصيدة النثر كانت قد ظهرت قبلاً بشكل رسمي في دواوين توفيق صايغ (ثلاثون قصيدة / ١٩٥٤) وألبير أديب (لمن /١٩٥٢) على سبيل المثال لا الحصر. إغفال المصطلحات وإغفال المقارنة في هذه الحالة أفضيا إلى

نتائج مغلوطة، تخلط تيارين بكلمة «الشعر الحر»، (وبالمناسبة يوسف الخال استعمل مصطلح الشعر الحديث) وتختصر المراحل إلى مرحلتين.

المفاجئ حقاً هو أنه بدلاً من أن تتيح لنا سيرة يوسف الخال وسيرة مجلته «شعر» إضاءة ما أنجز، وتصحيح ما ساد من أفكار خاطئة، نجدها تكرس المغالطات ولا تدقق في المصطلحات. ويبدو عزل يوسف الخال عما يحيط به عن طريق إلغاء المقارنة، أمراً مسيئاً إليه أكثر مما هو مفيد. فلو تتبعنا كلام جاك أماتاييس فيما يخص قصة انتساب الخال وغالبية أعضاء مجلة «شعر» إلى الحزب القومي السوري، لأفصح الكلام دونما جهد عن موقف سياسي محدد، رغم جنوح الجميع إلى الإنكار. هنا يكفي أن نستعين بكلام الباحث ذاته عند تحليله لوجهة نظر يوسف الخال في «إقرار أسبقية المضمون على الشكل ووحدتهما العضوية»: «حيث نبه الشعراء والسياسيين إلى أن الانكباب على البحث عن أشكال حكم وتعبير جديدة، ليس السبيل إلى النهضة والتقدم. وهذه الأمور ما هي إلا الوسيلة والمظهر والشكل». كيف يضع الشاعر الساسة والشعراء في سلة واحدة؟ هذا يبدو موقفاً إيديولوجياً حتى العظم، ولو تذكرنا أن أنطون سعادة كتب كتاباً أثر بشكل كبير في المنتسبين إلى الحزب ومجلة «شعر» على حد سواء (الصراع الفكري في الأدب السوري)، والذي يعتبره غازي براكس «من الركائز القوية التي قامت عليها بناية الحركة الشعرية المعاصرة لما تضمنه من نظرات عميقة في الأدب وتخطيط وتوجيه لإقامة أدب سام جديد»، لسألنا: هل الأدب يخضع لتخطيط وتوجيه كما يحدث عادة في الأحزاب؟. من الواضح أننا لو تذكرنا لما عجزنا عن رؤية صورتي السياسي والشاعر تتقاطعان. وفي موضع آخر يستشهد جاك أماتاييس بمقالة لغازي براكس نشرت في: «مجلة «آفاق» ذات المنحى الفكري القومي السوري والتي كانت تطبع في مطبعة دار مجلة «شعر»، أو «الخال إخوان». والمرجح أن يوسف الخال لم يقبل بنشرها في مجلة «شعر» لما فيها من ربط صريح بين الحركة الشعرية الحديثة وفكر أنطون سعادة». فهل كان يوسف الخال يراقب وينشر وفق وجهة نظر سياسية إذن؟.

بالعودة إلى بيروت الستينات، وبالتذكر أن الابتعاد المقصود والمعلن عن «الأيديولوجيات» كما طرحها الأدب الواقعي والاشتراكي والأدب الملتزم (ممثلاً بمجلة «الآداب» كما لا ننفك نكرر) هو موقف سياسي في حد ذاته، لظهر يوسف الخال إيديولوجياً أيضاً، وخصوصاً أن تضخيم أيديولوجيات الآخرين كان موقفه المعلن. السؤال بسيط: وما الغضاضة في أن يكون الشاعر ذا موقف سياسي؟ تبدو الأمور فاقعة عندما يعزل الشاعر عن محيطه، وتبدو فاقعة عندما عزلت مجلة «شعر» عن محيطها. الكل كان منتسباً إلى أحزاب سياسية في ذلك الوقت، وكان هذا جزءاً من تيار عام، لذا يجب التوقف عن تضخيم قصة الانتساب إلى الحزب القومي السوري عن طريق عزلها عن سياقها التاريخي. وهنا أيضاً ضمن منهج «توثيقي تاريخي» تجب الإشارة إلى الأجواء السائدة في بيروت الستينات، لا القول بأن حرباً شنت على مجلة أدبية غالبية أعضائها من الحزب القومي السوري ومسيحيين، فبيروت والتي لفرط ما كانت ذهبية ومتميزة أوحت بأن كل ما فيها وكل من فيها مبدع كبير آن يصل إليها، هنا انعكست المدينة بأطيافها المتعددة على الأدب. المقارنة كانت فيما لو حصلت لأنقذت المنهج التاريخي التوثيقي، ولوضعت الخال والجميع في سياقهم وبيئتهم التاريخيين، على نحو سمح لنا بإقصاء تلك «المعلومات الشائعة الطاغية» التي تمنعنا حتى من إعادة النظر.

والمقارنة أيضاً كانت ستنقذ المجلة، فمجلة «شعر» يجب أن تقارن بمجلة «أبوللو» ومجلة «حوار» ومجلة «الأديب» كي يستوي المنهج التاريخي التوثيقي. هي ليست حالة معزولة أو متفردة، ومقارنتها مع غيرها من

المجلات يضيئها ويبين مقدار ما أنجزته. فهي المجلة التي تأسست بجهود يوسف الخال، هو صاحب الفكرة وهو ذو شخصية كاريزمية ألهمت وأقنعت مجموعة من الكتاب الشبان بالعمل معاً من أجل الشعر. والناظر في مجلات «أبوللو» و«حوار» و«الأديب»، لن يلاقي صعوبة في وضع نقاط مشتركة بين المجلات الثلاث : مجلات أدبية ظهرت لفترة قصيرة نسبياً، ثم توقفت. طغت شخصية رئيس التحرير عليها، وهو شاعر في الحالات الأربع : زكي أبو شادي / أبوللو، ألبير أديب / الأديب، توفيق صايغ / حوار وأخيراً يوسف الخال /شعر. توقف المجلة في الحالات الأربع ارتبط بشكل مباشر برؤساء التحرير.

كان من المفيد ربما في حالة مجلة «شعر» كونها الأكثر شهرة، تسليط الضوء على تركيب «هيئة رئاسة التحرير» فيها، والنظر في اختلاف موقع أدونيس، فهذا وحده يكشف بصورة جلية الخلاف الذي فرط عقد المجلة في النهاية. هنا تُفتقد الجداول، إذ لو وضعت جداول تبين محتوياتها، طريقة التبويب، هيئة التحرير، عدد النسخ المباعة، (خصوصاً إنه من الشائع أن بضع مئات فقط من كل عدد كانت تنفذ) التمويل، لكانت أفضت إلى نتائج «ملموسة» وساعدت في فهم أكبر لإنجاز المجلة وأثرها. فدور الجدول إظهار المعلومات بطريقة «إحصائية» على الأقل كيما تفضي إلى نتائج محددة. والجدول يُفتقد في هذا الكتاب حين تكون الحاجة إليه شديدة، بينما يظهر بتواتر حين تنتفي الحاجة إليه. في القسم الأول من الكتاب تكثر الجداول التي تبين لنا كشفاً بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية التي انتسب إليها الخال، وجدولاً آخر يبين لنا انتسابه إلى الجامعات في حلب وبيروت، هناك جدول بالمقابلات الصحفية، وآخر بالندوات الإذاعية، جدول برسائل الخال المنشورة في الصحافة، وجداول بالمقالات والافتتاحيات المتناثرة. كافة المعلومات الواردة «صامتة» في الجداول هي ذاتها الموجودة في متن الكتاب. ولا فرق بين الحالتين، إذ يمكن الوصول إلى «النتائج» ذاتها مع جدول أو من دونه. بينما حين يكون الجدول مطلوباً كي يفضي إلى نتائج مختلفة، خصوصاً في القسم الثاني من الكتاب والمخصص للمجلة، يختفي. وإني أستغرب حقاً اختفاء الجداول هنا، خصوصاً إن جاك أماتاييس كان قد قدم دراسة عن شكل المجلة ومحتوياتها إلى جامعة تل أبيب بعنوان «فهرست مجلة «شعر» ١٩٥٧__١٩٦٤» كما أشار إد دي مور في مقالته المذكورة أعلاه، قبل أن يعلق : «قام أماتاييس بفهرسة كاملة لمحتويات المجلة وفي رأيي، هو عمل مفيد جداً ولم يؤخذ بجدية كبيرة من قبل مدرسِّيه».

وعطفاً على المجلات الأدبية، كان من المفيد ذكر «مجلة أدب» في متن كتاب كهذا للتذكير بها، وربما كان من المفيد حقاً لو عرّفنا إليها جاك أماتاييس بشكل موسع أكثر، هنا كان التوثيق مهماً مثلما كان مهماً في تصويب من هو المترجم الحقيقي لكتاب : «ثلاث مسرحيات» من منشورات الفكر الحر في بيروت، والذي أشيع أنه من ترجمة يوسف الخال بينما هو من ترجمة خليل جواد وحسين شعبان.

وعطفاً على التوثيق المفيد، من المناسب بعث الطمأنينة في قلب نديم نعيمة الذي عبر عن ألمه لضياع «الإنجيل الخامس»، قائلاً في مقابلة مع يسري الأمير في مجلة الآداب عدد ٩/ ١٠/ ٢٠٠١ : «وعندما ارتحل بحثنا عبثاً عن الإنجيل الخامس بين مخلفاته وفي كل مكان. وهو إلى الآن لا يزال علامة استفهام كبرى غريبة وموجعة جداً». فالموثق الدقيق الأنيق يذكر في «ثبت المصادر والمراجع» وجود «الإنجيل الخامس» لدى السيدة مها بيرقدار الخال.

فلسطين في العقل السياسي الأميركي
كاثلين كرستسن، ترجمة: مفيد عبدوني، دار قدمس، دمشق، ٢٠٠٤.

تبحث «كاثلين كرستسن» في هذا الكتاب عن مكان فلسطين في العقل السياسي الأميركي، فلا تجد غير صور مسبقة، نمطية، ومتخيلات، شكلت المرجعية التي نما وترعرع صناع السياسة في الولايات المتحدة الأميركية في إطارها، والتي تحولت الى سياق تُدرك فيها جملة القضايا العربية، وخصوصاً قضايا الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. ولم يؤد العرب دوراً جوهرياً في هذا الإطار، نظراً لأنهم كانوا مغيبين ومحتقرين وناقصين، أو تم تجاهلهم كلياً.

وترجع المؤلفة إلى البدايات كي تعثر على صور العرب الفلسطينيين في ذاكرة القرن التاسع عشر، الذي تشكلت فيه الصور النمطية عن فلسطين والعرب، فتجد-كمثال-رحلات «مارك توين» عبر أوروبا، والأرض المقدسة التي سُميت «الأبرياء في الخارج»، ونشرت في عام ١٨٦٩م، حيث صوّر فيها فلسطين كبلاد «حزينة وكاسرة للقلوب»، «فيها مناظر ومشاهد مملة وكئيبة»، و«تتخذ لنفسها مكاناً من الخيش والرماد». أما «سكانها العرب فهم أساساً أناس متسولون بطبيعتهم وغريزيون». وقد شكلت هذه الصور الانتقاصية أساساً لأولئك الذين ينشرون الدعاية في أن فلسطين كانت أرضاً مهجورة إلى أن «استوطنها الرواد اليهود». وقد استغلت إسرائيل مبالغات توين الفاضحة للأرض والشعب أبشع استغلال، كي تروّج للهجرات اليهودية الجماعية، وكي تنشر الدعاية المغرضة بين الأميركيين لمصلحتها.

غير أن كتاب مارك توين، كما تلاحظ المؤلفة، هو واحد من مئات كتب الرحلات عن الشرق الأوسط، التي نشرت في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية على امتداد القرن التاسع عشر، والتي نقلت صورة ازدرائية ومتعالية، تنتقص من حق الفلسطينيين والعرب. لكن الصورة اكتملت في أواخر القرن العشرين المنصرم، ولم يحدث ذلك عندما «خُلقت» فلسطين في عام ١٩٤٨، أي عندما أصبحت الصهيونية قوة في فلسطين قبل ما يزيد على خمسين عاماً، إنما في منتصف القرن التاسع عشر، عندما بدأ المؤرخون الغربيون والشرقيون والجغرافيون وعلماء الأعراق البشرية، إضافة الى المبشرين المسيحيين الغربيين، والرحالة العاديين من أمثال توين.. عندما بدأ كل هؤلاء يزورون فلسطين، وينقلون انطباعاتهم عن الأرض والشعب الى القراء والتجمعات والطوائف على امتداد العالم الغربي، فقد شكلت أعمالهم ما أسماه الراحل إدوارد سعيد «المؤسسة المتحدة للتعامل مع الشرق»، عبر وضع حقائق عن الشرق، أو الإدلاء بآراء عنه، أو وصفه وتوجيهه والتحكم به. وفرض استشراق القرن التاسع عشر نوعاً من السلطة الفكرية على الشرق، وأصبح أداة من أجل فرض السيطرة الامبريالية، وعمل دوماً من خلال فرضية التفوق الغربي على الشرق وعلى شعوبه أصحاب البشرة السمراء.

لكن الاستشراق الأميركي يحمل في طياته عناصر العقيدة الدينية والسياسية، ومثلما شجعت عقيدة

القضاء والقدر الامتداد نحو الغرب في شمال أميركا، فإن نبض القرن التاسع عشر لامتداد نفوذ الولايات المتحدة الأميركية الى الشرق، قد اعتمد على رغبة في تصدير المسيحية و«الحضارة» الى السكان الكفرة في الشرق. وتركزت أنظار الولايات المتحدة على فلسطين، «الأرض المقدسة وأرض التوراة، بصفتها مكاناً يجب أن تُعاد فيه المسيحية ومملكة إسرائيل، ويُسترد من المسلمين الدخلاء». وعزز فهم الغرب للإسلام حواجز أمام التفاهم بين الغرب والشرق، ويجد ذلك مرجعيته في عهد الصليبيين.

ومثل نظرائهم الغربيين، بدأ كتّاب الولايات المتحدة الأميركية يكتبون عن الإسلام، وعرضه بشكل متحيّز وإقصائي، وفي هذا الإطار الاستشراقي، تمت موازنة عرب فلسطين باليهود الحمر، «غير المتحضرين»، بل أكثر من ذلك. وبسبب المكانة ذات المغزى للأرض المقدسة عند المسيحيين الغربيين، تمّ تقديم الفلسطينيين بوصفهم غرباء في بلادهم، فهم ليسوا من الشعوب المذكورة في التوراة، كما أنهم ليسوا مسيحيين أو يهوداً، ولذلك فهم غرباء عن التراث المسيحي اليهودي «الصحيح». ولم ينج العرب والفلسطينيون من حملات السباب والشتم، إضافة الى تجاهلهم الكلي. وسيطر على الخيال الشعبي الاميركي والغربي، وبين أوساط الجمهور المثقف، وممن هم مهتمون دينياً، الادعاء بعدم وجود مواطنين وسكان عرب في الأراضي المقدسة، أو أنهم غرباء عنها، ويناسب هذا الطرح، ويتفق مع مفهوم المستعمرين الأميركيين الذي يعتبر أن الأراضي غير الغربية المتخلفة موجودة في كل مكان، وجاهزة لوضع اليد عليها من طرف شعوب وقوى غربية أكثر قدرة. وتمسك المفكرون والكتّاب الصهاينة بهذه الفكرة في ظل شعار «فلسطين من دون شعب، لشعب من دون أرض»، كما رسّخت الأدبيات والكتابات الصهيونية الاسرائيلية المبكرة بين أوساط المسيحيين الغربيين، الفكرة المتمثلة في أن عودة اليهود الى فلسطين هي وفاء لنبوءات توراتية. وعليه، ترى المؤلفة أنه ولمدة نصف قرن قبل اتفاقات أوسلو، لم يكن يُعترف بأن طرد الفلسطينيين من أراضيهم عام ١٩٤٨ هو سبب جوهري للصراع بينهم وبين الإسرائيليين، حيث «ترى الغالبية العظمى من الأميركيين بمن فيهم أولئك الذين على قدر من المعرفة والدراية، أنه لم يكن للفلسطينيين تاريخ في يوم من الأيام، ولم يكونوا في فلسطين إلى أن بدأوا العمل على تدميرها، وإلحاق أعمال العنف في إسرائيل.» وتستذكر المؤلفة في هذا السياق، سؤال أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي الذي سأل مسؤولاً سعودياً ذات مرة: «من أين أتوا؟»، قاصداً اللاجئين الفلسطينيين في الشتات. وهذا يبرز صلب المشكلة، أو التصوّر الأميركي العام عن المسألة الفلسطينية. حيث نجح الإسرائيليون بالفعل، وعبر سنوات طويلة، في إنجاز فكرة أن فلسطين هي أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ولم يكن ليخطر على بال أميركي أن هذه الأرض التي يجري الصراع عليها تنتمي الى شعب معيّن قبل عام ١٩٤٨. بالمقابل، وعلى الطرف النقيض، ترى المؤلفة أن العرب والفلسطينيين لم يفعلوا شيئاً ليطرحوا قضيتهم في القرن التاسع عشر، ذلك لأن موجة القومية التي اكتسحت أوروبا في تلك الفترة، لم تهب رياحها لتصل شواطئ العالم العربي إلا في وقت متأخر، كما لم تتوفر للفلسطينيين إدارة منفصلة خاصة بهم إبان الحكم العثماني، لذا لم يتمكنوا من تحقيق شعور متطور من العيش في وحدة إقليمية تدعى فلسطين، لكن الإدراك بـ «قومية فلسطينية محددة»، بدأ ينمو مع بداية القرن العشرين.

إن كل ما يعتقده صناع السياسة في الولايات المتحدة الأميركية حول الوضع الفلسطيني، كان في إطار شرقي، حيث وقفت فلسطين كأرض مقدسة توراتية، مقدر عليها بأمر إلهي إصلاح ما يقوم به المسيحيون واليهود، ويكون

فيه الأهالي العرب مهمشين ومقصيين. ومع ازدياد نفوذ قوة الحركة الصهيونية، ازداد تعزيز وتقوية هذا المفهوم بفضل مفكري اللوبي الصهيوني. ولم ينهض أحد للعمل على تقديم صورة صحيحة للوجود العربي والمسلم في فلسطين، أو يدفع بها إلى دائرة اهتمام الغربيين، أو يفند تلك المزاعم.

وتتعرض المؤلفة للأدوار التي كان يؤديها الرؤساء الأمريكيون، بدءاً من «ولسن»، وصولاً إلى «بوش» الثاني. فقد مارس الحنين إلى الوطن، والشوق التوراتي دوراً في قرار «ولسن» دعم البرنامج الصهيوني في فلسطين. لكن الأسباب العملية هي التي كانت دافعة ومحركة للرئيس، إذ لم يكن ولسن مهتماً بطريقة أو بأخرى بمصير فلسطين السياسي، ولم يبذل جهداً لفهم حقّ العرب الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، ولم يأبه لتأثير الخطط الصهيونية عليهم. ومارس دوراً قيادياً ريادياً في دعم الصهيونية، إذ إنه أول رئيس للولايات المتحدة دعم فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، حين صادق على الخطة البريطانية لإصدار بيان لدعم الحركة الصهيونية، والذي عرف باسم وعد بلفور. ولم يتخذ «فرانكلين روزفلت» أية قرارات سياسية مهمة فيما يتعلق بفلسطين، لكنه حافظ على استمرارية ما أصبح معروفاً بنظام من إطار المرجعية، في وقت حرج من تاريخ فلسطين، فحين جاء إلى السلطة عام ١٩٣٢، كانت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين في حالة ازدياد متصاعد، ومتسارعة مع وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا، وفي فترة بدء المحادثات الجدية الحاسمة حول دولة لليهود في فلسطين، وبالتالي، قُبلت الصهيونية عملياً كأمر روتيني، بوصفها موروثة من ولسن. ولم يتساءل صناع القرار في واشنطن عن المعنى الحقيقي والعواقب التي تترتب على هذا الالتزام، كما لم تدرك الولايات المتحدة، وقتها، أن ما بدا التزاماً بدولة أو وطن يهودي على جزء من أرض فلسطين، سرعان ما تحول الى التزام بإحالة كل أرض فلسطين الى اليهود. وتعزو المؤلفة استمرارية النهج السياسي تجاه فلسطين في عهد روزفلت الى القصور الذاتي السياسي، وهو نوع من القصور أتى بعد الممارسات الروتينية السابقة، يقاوم التحديات أو يخاطب ويشكك في أطروحات لمفاهيم مقبولة. وأخذت تنحو قرارات السياسة الأساس، خاصة تلك التي خلقت تأثيراً مباشراً وقليلاً، أو يكاد يكون معدوماً في مصالح الولايات المتحدة، منحى تصبح فيه نقشاً ثابتاً على الصخر، مشكّلة سياسة جوهرية لا تخضع للمساءلة قط، ولا تتغير جراء قصور ذاتي أساسي. هذا ما فعله الدعم الأميركي لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، ليتم إعلانها دون مبالاة، منحازة الى الحلفاء في زمن الحرب، والى الأصدقاء السياسيين داخل الوطن، لتصبح ركيزة من السياسة التي لا يمكن مهاجمتها أو تغييرها.

إن التاريخ الأصلي لفلسطين، ولنشأة اسرائيل، لم يكتب من طرف مؤرخين مستقلين محترفين، بل كتبه مؤرخون رسميون أو عسكريون، مشاركون في الحرب أو سياسيون، وجنود، وصحفيون، وكتاب السير، وقلة منهم كانت موضوعية، ربما يستثنى منهم بعض المؤرخين الجدد، لكن التاريخ ملك المنتصرين كما تقول ذلك المؤلفة بمرارة، وقد قبل الأميركيون، ومعهم غالبية صناع القرار السياسي الأميركي، مسار التاريخ هذا، لأنه كان سهلاً عليهم أن يفعلوا ذلك. إذ ومع مجيء «هنري ترومان» إلى الحكم، بعد وفاة روزفلت، كان موضوع وجود إسرائيل وبقائها أمراً مهماً، دون أدنى معارضة، وعليه، كان دعم ترومان الذي قدمه لإسرائيل غير محدود، مع أن دوره في خلق إسرائيل أكثر تعقيداً، سواء لجهة الدوافع السياسية الداخلية أم الأخلاقية. وترى المؤلفة أن الفلسطينيين نادراً ما دخلوا في حسابات الساسة في الولايات المتحدة الأميركية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، تماشياً مع مبدأ ما هو بعيد

عن العين بعيد عن العقل. وبعد تشتيتهم عن ديارهم اختفى اسم فلسطين من سجلات العالم السياسية، فأصبح الشعب الفلسطيني ذاته من دون اسم، وبات الفلسطينيون يعرفون بأنهم فقط «لاجئون عرب»، دون هوية أو وضع محدد، سوى أنهم جماعة من سكان المخيمات. وتلك ظاهرة استمرت طوال ادارات الرؤساء «داويت آيزنهاور» و«جون كينيدي» و«ليندون جونسون»، ولهذا وصل جيل من صناع السياسة إلى مرحلة لا يعرفون فيها، ولا يعتقدون أن من الضرورة أن يعرفوا، قصة الفلسطينيين وقضيتهم، فقد استولت اسرائيل على الأرض، لأنها انتصرت في عام ١٩٤٨، واستولت على التاريخ أيضاً. ثم صارت اسرائيل دولة، ولم يعد للفلسطينيين دولة، لذلك، فرضت اسرائيل حدوداً للتخاطب بشأن «المشكلة الفلسطينية ـ الاسرائيلية». وحين تولى «ريتشارد نيكسون» السلطة عام ١٩٦٩، كان على قدر يسير من معرفة الوضع الفلسطيني وتشعباته السياسية، وعندما أصبح «هنري كيسنجر» وزيراً للخارجية عام ١٩٧٣، وبقي في هذا المنصب أثناء تولي «جيرالد فورد» أيضاً، فإنه بات معنياً بالفلسطينيين، ومدركاً دورهم في عملية السلام العربي ـ الاسرائيلي، لكنه كان يحاول اضعاف قوتهم السياسية المتنامية كعامل سياسي مهم في مفاوضات السلام.

وتعتبر المؤلفة أن كلاً من نيكسون وكيسنجر كانا من أبناء عصرهم، ونتاج زمنهم، في فهمهم لقضية الصراع العربي ـ الاسرائيلي، إذ تشكلت آراؤهم وفق أعراف معمول بها لدى الاسرائيليين نحو العرب، وكذلك انطلاقاً من رؤيتهم الاستراتيجية العالمية. كان اطار مرجعيتهما موجهاً سوفييتياً، وسلّط الأضواء على اسرائيل أكثر ما كان معنياً بالعرب. ومن ضمن أحد بنود الاستراتيجية العالمية الأميركية وعناصرها الأساس، ضمان أمن إسرائيل، والحؤول دون أن يرى السوفييت الصراع العربي ـ الاسرائيلي من منظور عربي، أو من منظور فلسطيني، لكن مجيء «جيمي كارتر» إلى الحكم في الولايات المتحدة الأميركية غيّر أو قلب ـ كما تقول المؤلفة ـ المفاهيم الخاطئة التي امتدت طوال عقود من الزمن عن عدم أهمية الفلسطينيين، أو بكلام أوضح، انتشل سياسة الولايات المتحدة من اطارها الضيق، المحدود القديم في التفكير بالقضية الفلسطينية، وذلك من خلال محاولته التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية، والاعتراف بالفلسطينيين كعامل حاسم في أي حل سلمي، واشراكهم في عملية السلام. وقد مثّل كارتر ندرة بين رؤساء الولايات المتحدة في تعامله مع المشكلة الإسرائيلية العربية، لكنه هُزم في النهاية أمام إلحاح إطار المرجعية الذي استمر، مع جهوده الحثيثة في تغييره، ولم يسجل التاريخ لأي رئيس في الولايات المتحدة فوزه في الانتخابات طالما يمارس ضغوطاً على إسرائيل، والاستثناء الوحيد آيزنهاور. أما كارتر، فلم يستطع أن يبذل جهوداً جدية في فترة ولايته، في معارضة رغبة اسرائيل في إبقاء الفلسطينيين خارج محادثات السلام، لأنه غرق في مشكلات سياسية، وفي النهاية، سقطت جهود كارتر في البدء بعملية سلام جدية.

ولقد أثار الاهتمام الذي حظيت به القضية الفلسطينية من طرف جيمي كارتر فزعاً في اسرائيل، وفي أوساط المؤيدين لها في الولايات المتحدة الأميركية، فشنت حملة دعاية هائلة موالية لاسرائيل، ومع مجيء «رونالد ريغان» إلى الحكم تغيرت التوجهات. إذ لم يكن يحمل بين جنباته أي تعاطف مع الفلسطينيين، كونه من نتاج أعراف سياسية تقليدية معمول بها في الولايات المتحدة، وأخذ معظم أفكاره حول العلاقات الدولية من حركة المحافظين القدامى، الذين يعتقدون أن الاتحاد السوفييتي مسؤول عن كل ما يقع في العالم من أذى أو ضرر. وتقدم صنعة السياسة في الشرق

الأوسط طوال ثماني سنوات من ادارة ريغان تفسيراً مهماً عن الأسلوب الذي يستطيع فيه النهج السياسي أن يخلق سياسة. إذ عندما تولى ريغان وزملاؤه السلطة، رجعوا بالنهج السياسي إلى تفكير السبعينيات. تمّ ذلك وكأن جهود كارتر في حل قضية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لم تحدث، أو ذهبت أدراج الريح، وارتدّ فريق ريغان إلى إطار المرجعية القديم، حيث لا مكان فيه للفلسطينيين والقضية الفلسطينية، وتكون فيه اسرائيل متفوقة في اعتبارات وتفكير سياسة الولايات المتحدة، ويحظى الصراع مع الاتحاد السوفييتي بصدد الحرب الباردة بالأولوية القصوى لدى الولايات المتحدة، وتكون إسرائيل فيه حليفاً ضرورياً، بغض النظر عن سجلها في سياسات الاستيطان غير الشرعي في الضفة الغربية أو سياستها العدوانية تجاه لبنان أو حقوق الإنسان.

وفوتت الإدارة الأميركية في عهد ريغان فرصاً متكررة لدفع عملية السلام، طوال ثماني سنوات من عمرها، فاندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى، لأن الفلسطينيين وصلوا إلى نقطة فقدان الأمل، وعدم رؤية أي خلاص أو فرج من الاحتلال الإسرائيلي. وترى المؤلفة أن الانتفاضة الفلسطينية كانت تعبيراً عن خيبة أمل الفلسطينيين الطويلة، وكانت أيضاً تأكيداً على هويتهم الوطنية، ومصدراً للفخر والاعتزاز لجميع الفلسطينيين الذين عززوا من سلطة الاعتدال في منظمة التحرير، وليعبروا عن استعدادهم للعيش المشترك مع الاسرائيليين. وقد حقق الفلسطينيون من خلال الانتفاضة ما لم يكن أحد في الولايات المتحدة واسرائيل راغباً أو مستعداً ليمنحهم إياه: الاعتراف بوجودهم كمجتمع وطني، راغب في تقاسم الأرض مع اسرائيل في ظل تعايش مشترك.

وترى المؤلفة أن ما يدعو إلى الاستهجان، هو أن تكون سنوات ريغان التي كانت فيها إدارته معارضة بشدة للمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، هي ذات الادارة التي كانت في النهاية مضطرة لتجيز فتح حوار مع المنظمة. لكن مأساة سنوات ريغان، أن إراقة دم الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية، التي أدت الى الاختراق الذي حقق التقارب بين منظمة التحرير والولايات المتحدة الأميركية، كان يمكن تجنبها، ولكان التقدم نحو السلام قد تمّ قبل سنوات عديدة، لو أن اطار التفكير لدى إدارة ريغان لم يكن منحازاً لإسرائيل إلى درجة كبيرة.

وعندما تولى «جورج بوش» منصبه في ١٩٨٩، أراد أن يدفع مع وزير خارجيته «جيمس بيكر» عملية السلام نحو الأمام، لكن بعض العوامل حالت دون ذلك خلال عام ونصف العام من بداية ولايته، اضافة لعدم توفر رؤية استراتيجية لسلام الشرق الأوسط لديهما. وحين ركّز بوش وبيكر اهتمامهما ثانية على عملية السلام، فإن الأوضاع في الشرق الأوسط والساحة الدولية جعلت الوضع قابلاً لتدخل الولايات المتحدة، حيث عقد مؤتمر مدريد للسلام في العام ١٩٩١، وكان نقطة تحول في تاريخ الصراع الفلسطيني والعربي الاسرائيلي. واتبع كل من بوش وبيكر سياسة تتفق مع اهتمامهما السياسي أو اهتمام الولايات المتحدة لا أكثر، وليس لأن لديهما رأياً في أخلاقية أو عدالة المواقف العربية. وأحدثت التطورات في الشرق الأوسط، ولا سيما الانتفاضة وحرب الخليج، تغيراً في فهم الجمهور في الولايات المتحدة حول الفلسطينيين والعرب، وهو تغير في اطار المرجعية الذي ينظر من خلاله الى العرب وإسرائيل، لكن التركيز الأحادي الجانب للولايات المتحدة على وجهة النظر الإسرائيلية في الصراع، يجعلها عاجزة عن انجازالدور الذي وضعته ورسمته لنفسها دوماً، كوسيط وصانعة للسلام. فعندما أنهى «بيل كلينتون» مدة ولايته، كانت عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية على وشك الانهيار، مع أن كلينتون أوشك

على إنجاز اختراق «درامي» في مفاوضات السلام، إلا أنه أخفق في النهاية من التحرر من ذات النهج السياسي الذي حدّ من التفكير، ولم يفلت من سياسة معظم سابقيه من الرؤساء، ذلك النهج الذي ركّز دوماً على إسرائيل واهتماماتها، بدلاً من التعامل مع اهتمامات الفلسطينيين والاسرائيليين ووجهات نظرهم بشكل متساوٍ. وفي نهاية المطاف، أخفقت إدارة كلينتون في إنجاح عملية السلام جراء هذا الاختلال في التوازن. ومع مجيء جورج بوش الابن إلى الحكم، صار الانحياز إلى إسرائيل وتبني مطالبها سافراً. وهنا تتحدث المؤلفة عن ظاهرة الولاء المزدوج داخل إدارة بوش وعالم المحافظين الجدد، حيث لا يميز هؤلاء المصالح الأميركية من المصالح الإسرائيلية، ويشجعون بشكل مكشوف على التطابق المزعوم بينهما. وقد وضع المحافظون الجدد على أجندتهم مسألة تخليص العراق من زعيمه، ومن مخزون أسلحته منذ زمن بعيد، مع وجود بوش الأب في السلطة، وتمّ تنقيط أوراق المحافظين الجدد بمفاهيم، مثل: «إعادة صياغة العراق»، و«إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط»، و«تنشئة بدائل عن عرفات»، وأصبحت كلها أجزاء مألوفة من اللغة الدبلوماسية لإدارة بوش. وتخلص المؤلفة إلى أن العامل الأكثر حسماً الموجه لصنع السياسة الأميركية، هو جماعة الموالين لإسرائيل، فلا الدعم الأصولي المسيحي لإسرائيل، ولا حسابات النفط، سوف تكون لها الأهمية في مجالس الإدارة الأميركية، بحيث تستغني عن المدخل الأساس لأولئك الموالين، الذين يعرفون كيف يلعبون بالمتعصبين المسيحيين، ويعرفون كذلك أن ما يؤاتي مصالحهم ومصالح اسرائيل هو المصالح النفطية لأشخاص أمثال: بوش وتشيني. وهنا يقوم ولاء موظفي الحكومة الأميركية لاسرائيل بصنع السياسة الأميركية، ويؤثر عليها بطرق خطيرة جداً.

الهيمنة أم البقاء: السعي الأميركي إلى السيطرة على العالم
نعوم تشومسكي، ترجمة:سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤

كل من يقرأ تشومسكي، ويتابع كتاباته السياسية، ودراساته اللغوية، والعلمية، يلمس تماماً النسق الذي ابتكره تشومسكي نفسه ببراعة كبيرة، ويعرف قوة كلامه عن النفاق، والميل للحرب لدى قادة وساسة أميركا، وبريطانيا، حليفها الأساسي. وتعدّ كتاباته في هذا المجال من بين الوثائق الحيوية القليلة عن زمننا الحالي.

وفي أحدث كتبه الذي يحمل عنوان «الهيمنة أم البقاء: السعي الأميركي إلى السيطرة على العالم»، يقوم تشومسكي بتشريح الدوافع الحقيقية، والعواقب الكارثية للحرب الأميركية الحالية، المسماة «الحرب ضد الإرهاب»، ويمثّل هذا الكتاب فصلاً جديداً في حياة هذا المعارض أو «المنشق» المثير للاهتمام.

يبدأ تشومسكي كتابه باقتطاف من «أرنست ماير»، أحد كبار علماء الأحياء، يرى فيه أن الشكل البشري من التنظيم العقلي قد لا يكون موضع تحبيذ عملية الاصطفاء الطبيعي، فتاريخ الحياة على وجه الأرض، يدحض الزعم بأنه «خير لك أن تكون ذكياً من أن تكون غبياً»، وذلك بالرجوع إلى «النجاحات البيولوجية على الأقل: فالخنافس والبكتيريا، على سبيل المثال، أنجح من البشر لجهة البقاء على قيد الحياة». وهنا يحضر كلام «برتراند رسل» (الذي ورد في الطبعة الإنكليزية لكتاب تشومسكي، ولم تتضمنه الطبعة العربية؟) الذي يعقد فيه مقارنة مرّة ما بين منتجات الأرض، حيث يقول: «بعد العصور التي أنتجت فيها

الأرض الفراشات والمفصليات ثلاثية الفصوص، التي لا تؤذي أحداً، تصاعدت مسيرة التقدم، فأنتجت كائنات من شاكلة نيرون وجنكيز خان وهتلر. ولكنني أعتقد أن هذا سيكون كابوساً قصير الأجل، إذ ستصبح الأرض من جديد قابلة لاحتضان الحياة، وسيسود السلام ربوعها مرة أخرى».

ويرى تشومسكي أن عام ٢٠٠٣ استُهل بعدد كبير من الدلائل التي تشير الى أن المخاوف بشأن بقاء الجنس البشري على قيد الحياة، كلها مخاوف واقعية جداً، حيث يورد أمثلة على بعض الوقائع التي تؤيد هذه المخاوف. فقبل نحو أربعين عاماً من خريف ٢٠٠٢، أمكن بالكاد تجنب حرب نووية، كان من المحتمل أن تكون القاضية. وفوراً بعيد هذا الاكتشاف المذهل، عمدت إدارة بوش الابن إلى عرقلة جهود منظمة الأمم المتحدة الرامية إلى حظر عسكرة الفضاء الخارجي، وهو خطر جسيم يتهدد البقاء، كما وضعت هذه الإدارة حداً نهائياً للمفاوضات الدولية لدرء الحرب البيولوجية، ومضت إلى ضمان حتمية الحرب على العراق، رغم المعارضة الشعبية التي لم يسبق لها مثيل. وفي شهر أيلول ٢٠٠٢، أذاعت إدارة بوش على الملأ استراتيجيتها للأمن القومي، وأفصحت فيها عن حقها في اللجوء إلى القوة العسكرية للقضاء على أي تحدّ منظور للهيمنة الأميركية على العالم. كذلك مضى الرئيس بوش ومساعدوه في محاولاتهم الحثيثة لتقويض المساعي الدولية الآيلة إلى تقليص الأخطار التي تكتنف البيئة، والمسلّم بأنها أخطار جسيمة. وكشفت الدراسات في مستهل العام ٢٠٠٣ عن أن الخوف من الولايات المتحدة الأميركية قد بلغ ذرى عالية جداً في جميع أنحاء العالم، مشفوعاً بارتياب شديد بقيادتها السياسية. وثمة سوابق تاريخية عديدة على رغبة القادة الأميركيين في التهديد بالقوة، أو في اللجوء الى العنف إزاء مخاطر غير يسيرة، لكن الرهان في أيامنا هذه أكبر بمراحل من أي وقت مضى، فنادراً ما كان الاختيار بين الهيمنة والبقاء مطروحاً على هذا النحو الصارخ.

وإذا كان لكتاب تشومسكي «الهيمنة أم البقاء» من رسالة يريد أن يوصلها إلى العالم، فهي تتمثل في أن الولايات المتحدة الأميركية تمثل اليوم المثال المحدد على ما يمكن أن تنجزه العبقرية الإنسانية، من حيث التقدم الاقتصادي والقوة العسكرية، ولكن اختلال الأوضاع الإنسانية، يضع كل هذه القوة تحت تصرف فئة قليلة تستخدمها في فرض «الهيمنة الكلية» على العالم. ويرتكز مسعى تشومسكي على تفكيك بعض الخيوط المتشابكة في هذه اللوحة المعقدة، مركزاً الانتباه على القوة العالمية التي تسعى الى التسلط على العالم، وتثير أفعالها وعقائدها الموجهة قلقاً أساسياً لدى كل فرد على سطح كوكب الأرض.

إذاً، فإن نزعة الهيمنة الأميركية تهدد بقاء البشرية، وليس عبثاً، في هذا الحيز الزمني، أن يعتقد تشومسكي بأن كل الشرور التي ارتكبت ضد الإنسانية، كانت بشكل مباشر، أو غير مباشر، من فعل الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة. وقد بدأ الأمر بذبح الأهالي العزل من سكان أميركا الشمالية الأصليين، ثم تمدد تدخلات أميركا جنوباً وغرباً، من خلال سلسلة من الاعتداءات ضد المكسيك والمستعمرات الفرنسية في أميركا الوسطى وكندا. وقد ارتكب جورج واشنطن وغيره من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة أعمال إبادة جماعية ضد الهنود. ثم انتقلت الولايات المتحدة الأميركية إلى سلسلة من عمليات نهب الموارد الطبيعية للعالم الجديد، من غير أي اعتبار للبيئة، وخلقت اقتصادها القوي من خلال هذه العمليات وسواها. وما أن فرغت من هذه

المهمة حتى بدأت الولايات المتحدة التخطيط «للهيمنة على العالم»، فشاركت في حربين عالميتين، إضافة إلى سلسلة من الحروب الصغيرة في مختلف أنحاء الأرض.

ويحاول تشومسكي كشف بصمات الولايات المتحدة الأميركية في جملة من الأحداث والوقائع العالمية، فهتلر وموسوليني، صعدا الى السلطة بمساعدة من أميركا، وجزئياً بمساعدة من بريطانيا، حيث استدعى صعود الفاشية في فترة ما بين الحربين العالميتين قلق الشعوب ومخاوفها، بينما اعتبر شيئاً مواتيا من طرف الحكومتين الأميركية والبريطانية، ومن قطاع المال والأعمال. ويرجع تشومسكي تفسير ذلك إلى أن النسخة الفاشية من القومية المتطرفة سمحت باختراق اقتصادي غربي واسع النطاق، وحُطمت الحركة العمالية، والقوى اليسارية ومعها الديمقراطية المفرطة التي كانت تسمح بحرية الحركة. وكان الدعم لموسوليني قوياً وفياضاً، فقد حظي هذا «النبيل الإيطالي الرائع»، حسب وصف الرئيس روزفلت عام ١٩٣٣، بقدر وافر من الاحترام إلى حين اندلاع الحرب العالمية الثانية. وهنا يُذكّر تشومسكي، بأن أبشع وأفظع نظام عرفه التاريخ وصل إلى السلطة في بلد كان يُمثل، بكل المقاييس المقبولة، أعلى ذرى الحضارة الغربية في مجالات العلوم والفنون، ولطالما عُدّ قدوة في الديمقراطية قبل أن يأخذ النزاع الدولي أشكالاً لا تتسع لهذا التصور؛ وكصدام حسين بعده بنصف قرن، ظلّ النظام النازي يحتفظ بمساندة بريطانية وأميركية كبيرة إلى أن شن هتلر عدوانه المباشر الذي مس بشكل خطير مصالح الدولتين.

أما بخصوص الوضع الحالي، فإن تشومسكي يصف العصر الجديد الذي دخلته البشرية بعصر الرعب الكبير، لكن العالم لم ينقلب، هكذا على حين غرة، إلى عالم محفوف بالمخاطر الاستثنائية في ١١ أيلول ٢٠٠١، حتى يتطلب صيغ تصريف جديدة، تفكك القانون الدولي والمؤسسات الدولية، وتمنح البيت الأبيض سلطة الاستخفاف بحكم القانون في الداخل الأميركي. صحيح أن أحداً لم يكن باستطاعته أن يتنبأ بأحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ في واشنطن ونيويورك، ولكن الجميع كان يعرف أن احتكار الغرب الصناعي والرأسمالي للإرهاب قد ولى إلى غير رجعة، والجميع كان يعلم، بأنه يمكن لأي جماعة إرهابية أن تُدخل إلى أميركا بعض أسلحة الدمار الشامل، مثل: القنابل الذرية الصغيرة، أو ما يُعرف القنابل القذرة، أو الفيروسات البيولوجية، أو بعض الأسلحة الكيميائية، والجميع يعلم أن نسبة حظ الإرهابيين في إنجاح ضربتهم داخل اميركا نفسها تصل إلى ٩٠٪، ولكن ينبغي أن يعلم الجميع أن جورج دبليو بوش لم يكن أول رئيس أميركي يعلن الحرب على الإرهاب، كما يتوهم الكثيرون، والواقع هو أن هذه الحرب كانت قد أعلنت لأول مرة قبل نحو عشرين سنة، في ذلك التاريخ، من قبل رونالد ريغان وبوش الأب. وقد حدد كل من هذين الرئيسين بؤرتين للإرهاب في العالم، الأولى، هي أميركا الوسطى، والثانية، هي الشرق الأوسط، وقام ريغان ونائبه بوش الأب بحملة كبيرة «لاستئصال سرطان الإرهاب من هاتين المنطقتين»، واعتبرا ذلك بمثابة إحدى أولويات سياستهما الخارجية.

إذاً، فالحرب على الإرهاب التي شنتها إدارة ريغان كانت سابقة لحرب الإدارة الحالية، وقد قامت بتعبئة شعبية واسعة غير مسبوقة، من اجل إقناع الشعب الأميركي بالتدخل في أميركا الوسطى، ونجحت بذلك نظراً للقرب الجغرافي والعلاقات التاريخية ما بين أميركا الشمالية والوسطى. واتخذت إدارة ريغان، الهندوراس، كقاعدة عسكرية لمحاربة الإرهاب في المنطقة كلها. وطوال السنوات الأكثر بشاعة ورعباً في الشرق الأوسط،

كان المبعوث الخاص لريغان الى المنطقة هو وزير الدفاع الحالي لبوش الابن، أي دونالد رامسفيلد. وقد ارتكبت إدارة ريغان، في الشرق الأوسط وفي أميركا الوسطى، مجازر بشعة، وكانت الأعمال الأكثر بشاعة وهمجية في الشرق الأوسط قد تمت بالاتفاق ما بين أميركا وعملائها المحليين، تلك التي أدت إلى تدمير لبنان، والأراضي الفلسطينية المحتلة من قبل إسرائيل، وعليه، فإن الإرهاب ليس من جانب واحد، بل من جانبين، ويمكن القول إن إرهاب القوي أشد عنفاً وبطشاً. أما أميركا الوسطى التي عانت من هجمات قادة واشنطن الارهابيين وعملائهم المحليين، فقد تعرضت هي الأخرى لمجازر بشعة ومروعة.

وينتقل تشومسكي إلى متابعة حملة أخرى من حملات الإرهاب الدولي، الهادفة إلى التغلب على «التحدي الناجح»، وهي الحرب الإرهابية على نيكاراغوا. إذ تنير حالة نيكاراغوا أموراً كثيرة بالنظر إلى حجم الحملات الإرهابية التي شنت لتغيير أنظمة الحكم، وإلى دور القيادة الأميركية الحالية في تنفيذها، وطريقة طرحها أثناء تقدمها، ثم في إعادة تشكيلها استعادياً داخل الثقافة الفكرية، حيث تكتسب الحالة مزيداً من الدلالة والأهمية، لأنها غير خلافية البتة في ضوء أحكام أعلى المرجعيات الدولية، أي لدى من يتصفون بأدنى قدر من الالتزام بحقوق الإنسان والقانون الدولي.

فقد كانت نيكاراغوا أحد أهداف قادة واشنطن، والتي اشتكت إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي، وأصدرت المحكمة حكماً لصالحها، وأمرت الولايات المتحدة بإيقاف المجازر والإرهاب الدولي، لكن الإدارة الأميركية نظرت باحتقار إلى قرار محكمة العدل الدولية، وقالت إنها هي التي تقرر ما هو شرعي وما هو غير شرعي في نيكاراغوا، وليس هذه المحكمة. وحين لجأت نيكاراغوا إلى مجلس الأمن الدولي، الذي أصدر بدوره قراراً يؤيد قرار محكمة العدل الدولية، ويدعو جميع الدول بما فيها الولايات المتحدة الأميركية الى احترام القانون الدولي، فما كان من واشنطن سوى أن استخدمت حق النقض «الفيتو»، بغية إفشال القرار الدولي، فاستمرت في عملياتها العسكرية هناك حتى أخضعت شعب نيكاراغوا لإرادتها وهيمنتها.

ويتحدث تشومسكي بمرارة عن الإرهاب الدولي الذي تبنته عدة إدارات أميركية، حيث إن إنجازات الإرهاب الدولي منتزعة من صفحات التاريخ المُعقم، لكنها مبعث تفاخر لدى مرتكبيها، فمدرسة الأميركيتين الشهيرة التي تدرب ضباطاً في أميركا اللاتينية على أداء مهامهم، تُعلن باعتزاز أن إحدى «الحجج التي تُسجل لمصلحتها»، هي أن الجيش الأميركي يساعد على «إنزال الهزيمة بلاهوت التحرير»، هذه الهرطقة التي استسلمت لها الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، حين تبنت «خيار تفضيل الفقراء»، وكُتب عليها أن تذوق «أهوال الأرض» جراء تخليها عن الصراط المستقيم. ومما له دلالته الرمزية، أن السنوات العشر المروعة من إرهاب ريغان-بوش الأول، قد استُهلت قبل اعتلائهما سدة الحكم بقليل، باغتيال أسقف سلفادوري محافظ صار بمثابة «صوت من لا صوت لهم»، وذلك في تواطؤ لا يخفى من قوات الأمن المدعومة أميركياً، واختتمت السنوات العشر تلك بذبح ستة من المثقفين السلفادوريين اليسوعيين على يد كتيبة من النخبة التي سلحتها ودربتها واشنطن، وكانت تلك الكتيبة تملك سجلاً حافلاً بالفظاعات والأعمال الدموية. ويرجع تشومسكي دلالات هذه الحوادث في الثقافة الغربية إلى أنه لم يُقرأ عن هؤلاء القساوسة المشاغبين، ولم يتم

تداول أسمائهم على الألسن. وهكذا يكونون قد «قتلوا مرتين: مرة بالقتل ومرة بالنسيان».

يدين تشومسكي طغيان صدام حسين، والمجازر التي ارتكبها بحق شعبه، وكذلك الحروب المستمرة مع الجيران، كما يدين بن لادن، والقاعدة، وجريمة ١١ أيلول اللاإنسانية التي ذهب ضحيتها آلاف البشر. لكنه يدين كذلك تعامل الولايات المتحدة مع المتطرفين في أفغانستان، أي القاعدة وطالبان، حيث استخدامتهم الإدارة الأميركية في فترة ما، بغية تحقيق مآربها وتصفية حساباتها مع العدو السوفياتي، وحتى صدام حسين «كان من عملاء أميركا في فترة الثمانينيات عندما شن الحرب على إيران، وتلقى مختلف أنواع الدعم من دونالد رامسفيلد شخصياً». وعليه، فإن أميركا ليست بريئة إلى الحدّ الذي تحاول أن توهمنا به، وأيديها ملوثة بالدماء، مثل هؤلاء المستبدين الذين كانت تتعامل معهم وتدعمهم، سواء في أميركا اللاتينية أم في الشرق الأوسط.

ويُذكر تشومسكي بأن الرئيس كنيدي، بعد استلامه مقاليد السلطة ببضعة أشهر، أمر باستخدام كل وسائل الرعب في الأرض، بغية إخضاع كاسترو، أو تصفيته جسدياً، وحتى قبل عشرة أيام من مقتله أمر المخابرات بتكثيف جهودها في هذا الاتجاه. وكانت الإدارة الأميركية تخشى من أن يصبح النظام الكوبي قدوة لبقية الأنظمة في أميركا اللاتينية، ومن أن تحاول كوبا تحدي أميركا، فهيبة اميركا يجب ان تفرض نفسها على الجميع، ومن يتحداها ينبغي عليه أن يدفع الثمن الباهظ. ومرد ذلك، إذا ما استطاعت أميركا أن ترعب العالم كله، فإن ذلك هو السبيل الوحيد، أو الأفضل، لتحقيق مآربها الاقتصادية والسياسية. ومنذ عهد ريغان والقيادة الأميركية تطلق الذعر في العالم من حين لآخر لتخويف من لم يخف بعد، ويتحدث العديد من المسؤولين الأميركيين عن عدم كفاية الأساليب السلمية لإقناع البشر، وبالتالي، ينبغي أن تُترك الأجهزة الشرسة في الاستخبارات تفعل فعلها لإرهاب الدول المترددة في اتباعنا، وبعد ذلك يمكن للسياسة أن تتدخل.

لقد عارض تشومسكي الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأميركية على أفغانستان، وأطاحت بنظام حركة طالبان، ورأى أن هدف هذه الحرب ليس رغبة الولايات المتحدة في القضاء على تنظيم «القاعدة»، وإنما هو توسيع هيمنتها في منطقة آسيا الوسطى، إذ بمجرد تحول نظام طالبان إلى مواجهة الولايات المتحدة، أصبحت الحرب ضده جريمة حرب. ويتوقع تشومسكي أن يصل عدد الأفغان الذين لقوا حتفهم جراء التدخل الأميركي الى ستة ملايين شخص.

وأثبتت الحملة على أفغانستان، مدى قدرة الولايات المتحدة على الضرب، وقلب الأنظمة والمشاكسين، وبالتالي، فليفهم من يفهم، أو فليسكت، وواقع الأمر، أن نجاح أميركا في تخويف حركات الاحتجاج المضادة لها في غواتيمالا، وهندوراس، وتشيلي، وبقية أنحاء أميركا اللاتينية، شجعها على نقل المناهج ذاتها الى منطقة الشرق الأوسط لتطبيقها عليها. ففي لبنان سُحق اللاجئون الفلسطينيون بواسطة عمليات إرهابية مدعومة من طرف الولايات المتحدة، حيث شهد لبنان صدمات مؤلمة جديدة، فحوالي العشرين ألف شخص قتلوا العام ١٩٨٢ أثناء الغزو الإسرائيلي. وقُتل أضعاف ذلك في السنوات التالية على يد الجيش الاسرائيلي والمرتزقة اللبنانيين المتعاملين معه. ثم استمرت الأمور على نفس الشاكلة في التسعينيات، وتكررت الغزوات الإسرائيلية مع كل أعمال الدمار والقتل والإجرام الناتجة عنها، وأفضى ذلك أيضاً إلى طرد وتهجير مئات الآلاف من

سكان الجنوب اللبناني، فأصبحوا مشردين ولاجئين كالفلسطينيين. وأثناء ذلك كله، كان الدعم الأميركي متواصلاً وكبيراً، ولولاه لما تجرأت إسرائيل على فعل ما فعلته. وفي الثمانينيات من القرن الماضي، زاد قمع إسرائيل للسكان الفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة، وراحت تصادر أراضيهم وتزرع المستعمرات فيها، ولولا الدعم العسكري والاقتصادي والدبلوماسي والريديولوجي الأميركي لإسرائيل لما استطاعت تحقيق مخططاتها. وفي الأيام القليلة التي تلت حرب الخامس من حزيران، واحتلال ما تبقى من أراضي فلسطين، قال موشي ديان لمعاونيه ووزرائه ما يلي: «قولوا للفلسطينيين: إنهم سيعيشون أياماً قاسية كالكلاب! وإن أي واحد منهم يريد أن يهاجر فليهاجر فوراً، ولينج بنفسه».

ووصل إذلال الشعب الفلسطيني الى ذروته مع بناء جدار شارون العنصري، الذي سيؤدي الى اقتطاع أراض واسعة من الضفة الغربية وضمها الى إسرائيل، والمحزن في الأمر، إن المصائب تتوالى على الشعب الفلسطيني ولا أحد يتحرك لإنقاذه من محنته، والسبب هو أن جلاده «إسرائيل» مدعوم من قبل الولايات المتحدة القوة الأعظم في العالم. وبالتالي، فلا يحق لأميركا ان تتبجح بالدفاع عن قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وغير ذلك من البلاغيات المستهلكة، فحليفتها إسرائيل تدوس على هذه القيم يومياً منذ حوالي الأربعين عاماً، ومن يتجرأ على نقدها يتهم فوراً بمعاداة السامية.

ويعيد تشومسكي النقاش حول الفارق بين الإرهاب والمقاومة إلى نقطة حرجة ومهمة، إذ يتعلق الأمر بمشروعية الأعمال الهادفة إلى تحقيق «حق تقرير المصير، والحرية، والاستقلال، كما هو منصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة، لدى شعوب حرمت قسراً من ذلك الحق، ولا سيما الشعوب الرازحة تحت نير الأنظمة الاستعمارية والعنصرية والاحتلال الأجنبي.» هل تندرج تلك الأعمال تحت خانة الإرهاب أم المقاومة؟

ويستند تشومسكي إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة المتعلق بمشروعية أعمال المقاومة، وكانت الولايات المتحدة وإسرائيل، الدولتين اللتين صوتتا ضد القرار. وأنكرت هاتان الدولتان أن تكون مثل هذه الأعمال مقاومة مشروعة، ووصمتاها بوصمة الإرهاب. والموقف الأميركي-الاسرائيلي هذا يتعدى المناطق المحتلة، إذ تعتبر الولايات المتحدة، ومعها إسرائيل، حزب الله، مثلاً، إحدى المنظمات الإرهابية الرئيسية في العالم، ليس بسبب أعماله الإرهابية، بل لأنه تصدى لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان، ونجح في طرد الغزاة بعد عقدين من تحدي إسرائيل لقرارات مجلس الأمن بالانسحاب. لا بل إن الولايات المتحدة تشتط بعيداً إلى وصف الشعوب بـ«الإرهاب» إذا ما قاومت العدوان الأميركي المباشر، من الفيتناميين على سبيل المثال، وصولاً الى العراقيين في أيامنا هذه.

عمر كوش
ددمشق

شرق وغرب: الشرخ الأسطوري
جورج قرم، ترجمة: ماري طوق - بإشراف جورج قرم، دار الساقي - بيروت ٢٠٠٣

يحتل الدكتور جورج قرم موقعاً مميزاً بين الباحثين الذين تناولوا موضوع العلاقة التاريخية بين أوروبا والشرق. وقد أصدر عدداً من الكتب التي تلامس هذا الموضوع بشكل أو بآخر، مثل كتابه الشهير: «انفجار المشرق العربي»، الذي صدر قبل عشرين عاماً، وطبع بالعربية والفرنسية أكثر من مرة وكتابه الجديد: «شرق وغرب: الشرخ الأسطوري» استئناف لاهتماماته النظرية السابقة، ومداخلة في الوضع القائم الآن، الذي يأخذ فيه الشرق دلالة جديدة، إثر الهيمنة الأمريكية على المستوى العالمي، التي تعيد تعريف قضايا كثيرة، بما في ذلك ما يدعى «الشرق». ينطلق قرم من مسألة الحرب على العراق، وقد أصدر كتابه قبل سقوط بغداد، كي يبرهن على أنّ الشرق في المخيّلة الأمريكية مرتبط بالإدارة السياسية، ورجال الإعلام والمتنفذين من الأكاديميين، أكثر مما هو مرتبط بواقع الشرق الفعلي. فالولايات المتحدة تخترع الشرق الذي تريد، آخذةً في الاعتبار مصالحها والفضاء المحتمل لمناوراتها السياسية المستقبلية.

يتناول الفصل الأول من الكتاب معنى الشرق في الفترة الزمنية التي سبقت سقوط الاتحاد السوفييتي، حيث الشرق هو الدول الاشتراكية، والغرب هو جملة الدول المندرجة في حلف الأطلسي. كان الشرق في تلك الفترة شرقاً سياسياً، إن صحّ القول، يقوم على توازن الرعب، وعلى أشكالٍ من الرعب لا تنفصل عن مصالح الغرب الحيوية، والأمريكية منها بشكل خاص. أخذ الشرق بعد سقوط الاتحاد السوفييتي صورةً جديدة في المخيلة الأمريكية. لم يعد شرق الاشتراكية «والماركسية الملحدة»، التي أنشئت لمواجهتها منظمة المؤتمر الإسلامي، أصبح شرقاً جديداً سمته التعصّب، الذي ينفصل بصعوبةٍ عن الإسلام الذي تنبثق منه شرورٌ كثيرة.

لا ينسى الدكتور قرم، وهو يحلّل تحوّلات صورة الشرق، أن يشير إلى صورة الغرب عن ذاته، التي تتحدّد بالديمقراطية، والعقلانية، والإيمان بالبحث العلمي، في مقابل شرقٍ مسكونٍ بالروحانيات ومعادٍ للحضارة. والمقصود بذلك، منذ القديم حتى الآن، الشرق بالمعنى الإسلامي خاصة، الذي يرفض قيم الغرب ويرفضه الغرب، بحجّة رفض التسلّط والاستبداد الشرقي، ورفض «التعصب الديني» الذي يتضمّن العنف والانغلاق. يردّ قرم على أسطورة «الشرق المستبدّ» القائم على الدين، ويذكّر بالنازيّة التي قسمت العالم بين آريين وساميين، ومارست إرهاباً وتدميراً شديدين، علماً أن النازيّة كانت متحرّرة كليّاً من مرجعيّتها المسيحية. غير أنّ التخلّي عن الدين، لم يمنع النازيّة من استرجاع أساطير الأصول الجرمانية، وتحويلها إلى معتقدٍ مستبدّ وشديد الاستبداد. يبرهن على هذا أنّ التحرّر من الديني لا يعني قبول الديمقراطيّة وإنشاء النظام الديمقراطي، ولا الانفتاح على الحضارات الأخرى. إضافةً إل ذلك، فإنّ القول بجوهرٍ إسلاميّ مستبدّ قولٌ لا معنى له، ذلك أنّ الحضارة الإسلامية استفادت من التراث الهيليني، وتحاورت مع الحضارات القديمة في مصر وبلاد فارس، وتعلّمت أشياء كثيرة من الحضارة الرومانية. بل إنّ في الغرب ما هو أكثر انغلاقاً وتعصّباً من السلب المطلق المنسوب إلى الشرق، وآية ذلك، تلك النظريات البيولوجية التي تقول إنّ الغرب يملك جيناتٍ خاصة أكثر دينامية وإبداعاً من «الأجناس البشرية الأخرى»، وهو ما يجعل الغرب مؤّهلاً، بيولوجياً، وباصطفاءٍ طبيعي للهيمنة على الشعوب الأخرى وقيادتها. هكذا لا يصبح استعمار الشعوب، الذي بدأ

قبل خمسة قرون ٍولا يزال مستمراً حتى اليوم، فعلاً بربرياً قريباً من «الاستبداد الشرقي»، بل يظهر كتعبيرٍ «طبيعي» عن رسالةٍ تمدينية، ينقلها المتفوّق إلى الآخر المخلوق من عجينةٍ أخرى.

إنّ موقف الغرب إزاء الشرق، مهما تكن أشكاله وأدواته، لا يخفي الإنجاز الثقافي والحضاري الغربي، الذي بدأته الأزمنة الغربية الحديثة، واستمر إلى اليوم، رغم استنفاذ الثورة البرجوازية الأوروبية لإمكانياتها التحررية، منذ زمنٍ طويل، وتحوّلها إلى رأسمالية مشغولة بالخسائر والأرباح. وهذا الواقع، الذي يبدو الغرب فيه مرجعاً للتقدّم من ناحية، ومرجعية للاستعمار وقمع الشعوب من ناحية ثانية، هو الذي أدّى إلى انقسام فكر الإصلاحيين الإسلاميين في تقويم الغرب إلى تيارين: أولهما، يدعو إلى التعامل مع الغرب والحوار معه والإفادة من ثقافته، في حين اكتفى التيّار الثاني بالتنديد بالغرب، والهجوم الشديد على «ماديّته» الدنيوية. ومن الغرابة، التي يمكن فهم أسبابها، أنّ الغرب اختار دائماً التعامل مع التيّار التقليدي، وسعى بأشكالٍ مختلفة، بما فيها العدوان العسكري، إلى تثبيت البنى التقليدية في الحكم والمجتمع، وإلى تزويد الأنظمة التقليدية بالوسائل الحديثة من أجل الحفاظ على التقليدي في جميع المجالات. بل إنّ الكثير من الأنظمة الموغلة في عدائها للحداثة، لم تكن قادرة على البقاء لولا دعم الغرب المستمرّ لها.

مفارقة غريبة أخرى، لا تختلف عن سابقتها، هي موقف الفكر الغربي، والمرتبط بالسلطات السياسية خاصة، من الدين. فهذا الفكر في بلاده تحرّر من الدين، ولم يعد يرى في الدين عنصراً لتفسير الحياة الاجتماعية، فهو يتعامل في تفسيره للظواهر الغربية مع علوم الاقتصاد وعلم الاجتماع والتاريخ والإحصاء، لكنّه يغيّر موقفه عندما يقف أمام المجتمعات الشرقية. فهذه المجتمعات عنده دينية، ولا تفسَّر وتُشرَح إلاّ بالمعايير الدينية، حتى تكاد تبدو مجتمعاتٍ لها جوهر إنساني مختلف، لها معايير خاصة بها مستقلّة كلّياً عن معايير المجتمع الغربي. من اللافت للنظر هنا، أنّ الغرب الذي يرى في حضارته حضارةً كونية، يساهم في صناعة «الخصوصية الشرقية» التي يرجع ويتّهمها بالانغلاق والتعصّب. بهذا المعنى، يصنع الغرب الشرق الذي يريد، كي يحتفظ بحقه في الفصل بينهما، على مستوى «التحليل العلمي» والمواقف السياسية أيضاً. فبقدر ما أن للغرب علماً يحلّل قضاياه، يختلف عن ذاك الخاص بالشرق، فإنّ للغرب موقفاً سياسياً موازياً، وهو ما أصبح يدعى اليوم بالسياسة التي تكيل بأكثر من مكيال.

يساوي الغرب بين الشرق والدين، ويعتبر ذاته أنّه تحرّر من المعيار الديني منذ زمنٍ طويل. لكن هذا الادعاء لا ينقصه التناقض، فالغرب العلماني اعترف بدولة إسرائيل التي قامت على أساسٍ ديني، وقام، عملياً، بخلقها ودعمها وتثبيتها. بل إنّ هذا التناقض واضحُ بطريقته الدينية،، التي تفسّر انغلاق الشرق بالعامل الديني. فمن المفترض أنّ التفكير العلماني يفسّر الدين، أو التعصّب الديني، بالعوامل الاجتماعية التي تقول بضرورة وجود الدين، والتي تخلق أيضاً الوعي الديني في شكله المتعصّب. لقد أدّى خطاب الغرب المتعصّب عن نفسه، إلى تعيين ذاته رسولاً لهداية الشرقيين الضالّين، إلى درجةٍ يحتفل فيها الغربيون اليوم، والولايات المتحدة بشكلٍ خاص، «بعودة الله». ذلك أنّ القومية الأمريكية تمتدّ بجذورها إلى البروتستانتية والعهد القديم. وسواء كشف الغرب عن تمسّكه بالدين أو عن التحرّر منه، فإنّه أنتج، في الحالتين معاً، ديناً خاصاً به هو: «دين القوّة»، الذي يجعل من الغرب

عالماً «مقدّساً»، ومن الشرق عالماً غريباً عن القداسة ومفعماً بالآثام. وظهر دين القوّة هذا، الذي أوكل إلى الولايات المتحدة الدفاع عن المقدّسات الغربية، بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، حيث قبلت الأيديولوجيات العلمانية الغربية بالمزاعم والسياسات الأمريكية: الهدف مقدّس، والوسائل علمانية.

يتطرّق الدكتور قرم في كتابه إلى قضايا الهويّة والانتماء، مشيراً إلى أمرين: أوّلهما، دور الغرب في إنتاج الخصوصيّات الشرقية، التي تعطي الغرب خصوصيّة أخرى، وتسوّغ دوره في مواجهة: الشرق - الدين، والدين الشرقي - الإرهاب. أمّا ثاني الأمرين، فهو حديث المفكّرين الشرقيين عن خصوصيّتهم المطلقة التي هي استرجاع، لا ذكاء فيه، للحديث الغربي عن الشرق. هكذا يصبح الشرق حاملاً للمشعل الإلهي، ويُمسي الغرب آلة الحرب ضدّ الله. والأمر أكثر خطورة من آليّته البسيطة، ذلك أنّ المفكّرين، الذين يواجهون الغرب الكافر بالشرق المؤمن، لن يجدوا في الديمقراطية إلاّ بضاعة غربية، وفي العلمانية آلة حربٍ غربية و«مؤامرة يهودية - مسيحية ضدّ الإسلام»، علماً أنّ التاريخ يبرهن على أنّ الإسلام لم يعرف في تاريخه إلاّ سلطة مدنية.

يرى الدكتور قرم أنّ الدينيّ لم يختفِ من القومية المعاصرة، حتى في شكلها الأوربي، فما حصل هو انتقال الدينيّ من مركزه المحوريّ القديم، أي الكنيسة وجماعة المؤمنين، إلى الجماعة العرقية أو القومية. والقوميات المعاصرة، كما الأيديولوجيات أيضاً، غرفت بوفرة من اللاهوت التوراتي، فكلّ قوميةٍ تضع في ذاتها شعباً مختاراً، سواء انتهى الى العناية الإلهية، أو توقف قبل الوصول إليها، بما في ذلك الماركسية التي وعدت الطبقة العاملة، بل الإنسانية جمعاء، بأن تقودها إلى «أرض الميعاد». وواقع الأمر، أنّ العلمانية التي يدّعيها الغرب لنفسه كاذبة، فهي علمنة مخادعة تجترّها الثقافة الغربية، وتدفعها اليوم الى الانتساب الى جذور يهودية-مسيحية، بديلة عن الجذور الإغريقية-الرومانية التي تبنتها ثقافة النهضة الأوروبية. وفي الواقع، فإنّ الجذور الأخيرة وثنية وحلولية وتعددية، وهي الركائز الأولى للديمقراطية، ولنزع السحر عن الفكر والعالم، لا عنف فيها ولا تعصّب، كرّست نفسها لخدمة الإيمان الديني المتسامح، بعيداً عن أساطير الخلاص النهائي. وقد عزّز من هذا الانقلاب النصر الأميركي في الحرب الباردة، الذي جعل من غرب النهضة الأوروبية غرباً يهوديا-مسيحياً، صورته المركبة هي دولة اسرائيل، التي لا تسمح لها «غربيّتها» بأن تكون دولة عنصرية أو عدوانية، فهي من الغرب، ولها دور الغرب في هداية العالم الضالّ. في هذا الانقلاب تصالح التاريخ العلماني والتاريخ الديني للغرب، وأصبح «الآخر» هو المسلم المكروه، وأصبح الغرب يتعامل مع الإسلام بصفته عقيدةً كلية متصلّبة، تنضح عنفاً، وتتنفس لا عقلانية كاملة. يردّ الدكتور قرم على هذا بالرجوع إلى تاريخ الإسلام الذي استفاد من حضاراتٍ كثيرة، وبتأكيد أنّ الإسلام قبل التعددية الدينية في مجتمعاته، وأنّ وضع الإسلام الراهن لا ينفصل عن فشل الحداثة العربية، وعن الصراع بين الحداثيين والتقليديين، الذي زجّ بالإسلام في الصراع السياسي وأعطاه طابعا مُمَأسساً، بعد أن كان ديناً مفتوحاً بعيداً عن الانغلاق.

في التحوّلات التي اعترت الخطاب الإسلامي الراهن، لا بدّ من الإشارة، كما يرى الدكتور جورج قرم، الى خسارة القومية العربية العلمانية معركتها ضدّ الاستعمار أولاً، وضدّ اسرائيل لاحقاً، إضافة الى فشلها الشديد في خلق مجتمع ديمقراطي حداثيّ، التي سبقت خيبة الماركسية والتوجّهات الاشتراكية. وهكذا تُرك المجال لهيمنة «الإسلام السياسي» من جهة،

ولانتصارات إسرائيل وثقافة الهولوكوست من جهةٍ ثانية. وما أن جاء الحادي عشر من أيلول حتى بات الإسلام في نظر الغرب معادلاً للإرهاب.

يتطلع جورج قرم الى إصلاح فلسفة التنوير، في شقيها الغربي والعربي. فقد كانت المركزية الأوروبية في صميم الفكر التنويري الأوروبي، الأمر الذي أعطى «الآخر» مركزاً متدنياً، وأقصاه عن المعايير والحقوق الإنسانية، إضافة الى حتميّة التقدّم القائم على العلم، وهو ما أضعف الاهتمام بالأخلاق والقضايا الأخلاقية. وحملت الماركسية هاتين الصفتين معاً، وأضاف لها الماركسيون العرب تفاؤلاً ساذجاً، فصل الطبقة العاملة عن غيرها، الأمر الذي همّش قضيّة الديمقراطية. ولم يستطع التنويريون العرب أن يصلوا الى أسئلتهم الخاصة، ولا أن يبنوا الفكر التنويري على قواعد متّسقة، فوصل بعضهم إلى التغريب، الذي يعزلهم عن مجتمعهم، والبعض الآخر إلى التلفيق، الذي وضعهم دائماً في مواقع دفاعية لا هجومية.

أما بالنسبة لليوم، وفي حدود العلاقة الراهنة بين الشرق والغرب، فإن على المثقف العربي أن يعمل من أجل استيعاب الثقافة الغربية استيعاباً نقدياً، وأن يكشف عن الوجه النرجسي في الثقافة الغربية، الذي يمجّد ما هو غربي، ويستخفّ بما هو غير غربي. وعلى المثقف العربي، أولاً، أن يتحرّر من طروحات الثقافة الغربية عن انقسام العالم الى شرقٍ وغربٍ لا يلتقيان، ومن حديث الخصوصيات الذي يوهمه بأنه يعبّر عن ذاته، في حين أنه يستظهر أفكار الغرب عنه، التي تكرّس الوضع العربي الراهن، الذي يحتاج الى تغيير كبير.

ينطلق كتاب قرم من الراهن، ويتعامل مع أسئلة الراهن بموضوعية وحرّية ومعرفة، بعيداً عن الكتب «الأكاديمية» التي تدّعي العلم وتحاذر السياسة، وعن ذلك النوع من الكتب المشغول بالماضي قبل غيره.

رندة بعث

دمشق